

نوابغ الفكر العربي

٢٨

# البهاء زهير

بقلم الدكتور عبد الفتاح شلبي



دار المعارف بمصر

Sp  
89  
3  
R





البحار الزهيرة



نوابغ الفكر العربي

٢٨

# البهاء زهير

٥٨١ - ٦٥٦ هـ

بقلم الدكتور عبد الفتاح شبلي

« وما زال شعري فيه للروح راحة »

وللقلب مسلاة ، وللهم مصرف »

البهاء زهير

الطبعة الثانية



دار المغارف بمصر



## الفصل الأول

### عصر البهاء زهير

#### ١ - الحياة السياسية

عاصر البهاء زهير دولة بنى أيوب ، وصدرأ من دولة المماليك البحرية يبلغ ست سنوات .

#### ١ - عهد بنى أيوب ونظام الحكم فيه :

قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية الشيعية ، وأعاد الخطبة للخليفة العباسي ببغداد ، ولقب الأيوبيين أنفسهم بالسلطين ، وحرصوا على أن يبارك الخليفة العباسي سلطنتهم ؛ حتى تتخذ دولتهم الصبغة الشرعية ، فكانت خلع الخليفة من الفرجية السوداء ، والطوق الذهبي ترد إلى السلطان الأيوبي ، ويحتفل بها في مشهد عظيم .

وقد أخذ الأيوبيون بنظام الوراثة ، فأوصى صلاح الدين أن تقسم دولته على أولاده الثلاثة من بعده ، ولم يأخذ المماليك بنظام الوراثة هذا ، بل كان يتولى الحكم أشجعهم وأقدرهم ، حتى إذا كان السلطان يبصر أعاد نظام الوراثة كما كان في عهد الأيوبيين .

ويلى وظيفة السلطان فى المرتبة : وظيفة « نائب السلطان »<sup>(١)</sup> ، وهى وظيفة جديدة لم تكن فى الدولة الفاطمية ، وقد دعت إليها الظروف الحربية التى اقتضت أن يتغيب السلطان عن الديار المصرية ، فكان لا بد من نائب له ، يصرف أمور الدولة فى أثناء غيابه ، وقد كان من نواب السلطان صلاح الدين - أخوه الملك العادل ، وابن أخيه تقي الدين عمر ، وبهاء الدين قراقوش .

---

(١) « الحركة الفكرية فى مصر » لعبد اللطيف حمزة : ٤٨ .

وكان هناك كذلك نواب للسلطان ينوبون عنه فى القضاء بين الناس ، وقد رتب السلطان الصالح نجم الدين أيوب نواباً بدار العدل يجلسون لإزالة المظالم ، فهرع الناس إليها من كل جانب ، ورفعوا ظلاماتهم ، فكشفت ، واستراح السلطان من وقوف الناس إليه<sup>(١)</sup> .

كما فوض الصالح أيوب قضاء مصر والوجه القبلى لابن عبد السلام<sup>(٢)</sup> . ومن الوظائف الدينية التى لها أهميتها - بعد وظيفة قاضى القضاة - وظيفة المحتسب ، وكان للمحتسب فى الدولة الأيوبية سلطة واسعة يراقب الناس فى الأسواق والطرقات والمساجد والفنادق ، ويرعى المعروف والفضيلة ، ويحول دون المفاسد والمنكرات<sup>(٣)</sup> .

وكان التغلب على الفرنجة فى الحروب الصليبية ، هو شغل الأيوبيين الشاغل ، ومن أجل ذلك لم يكن لدى هذه الدولة متسع للأخذ بمظاهر الخلفاء الفاطميين ورسومهم وتقاليدهم وأبتهم وتحجبهم عن الناس ، كما صرفت الحروب الأيوبيين عن أكثر ما كان للفاطميين من نظم ، واكتفوا بالضرورى منها .

وقد اتخذ السلاطين الأيوبيون لأنفسهم وزراء يعاونونهم ، واشتهر فى دولتهم عدد من هؤلاء الوزراء عرفوا بالفطنة وحسن السياسة ، فمن وزراء صلاح الدين الوزير العظيم عبد الرحيم بن على البيسانى المعروف بالقاضى الفاضل<sup>(٤)</sup> وبهاء الدين قراقوش . . . وأولهما كان أديباً وصاحب مذهب فى النثر الفنى . . . وأما بهاء الدين قراقوش فهو الذى أتم بناء سور القاهرة وهدم لبنائه جوامع وبيوتاً وقبوراً كثيرة كانت قائمة فى مكان السور . . . فاتهم بالاستبداد ولقب بهاء الدين بقراقوش أى «الطير الأسود» . . . ولا يزال بعض عامة الشرقيين يصفون هذا الاسم

(١) « السلوك » : ٣٠٧/١ .

(٢) « السلوك » : ٢٠٩/١ .

(٣) « المثل السائر » لابن الأثير : ٢٢٧/١ ط القاهرة .

(٤) « خطط المقرئى » : ٣٦٣/٣ .



بالاستبداد والعسف . وقد ألف الأسعد بن مماتي كتاباً سماه « الفاشوش في أحكام قراقوش »<sup>(١)</sup> .

ومن وزراء العادل « ابن النحال » ، وكان رجلاً نصرانياً ثم أسلم . وصنى ، الدين بن شكر ، وكان يقال له : الصاحب . ويقول المقرئ في خطه : إنه لم يلق بلقب الصاحب وزير قبل صنى الدين هذا ... وقد حدثت جفوة بين العادل وصنى الدين فأقاله من منصبه . ولما مات العادل استوزر ابنه الكامل « ابن شكر » مرة أخرى ، ولكنه سلك سبيل الباغين والطغاة فصادره الكامل ، وأحاط بجميع موجوده ، وقبض عليه وعلى أولاده ، واكتفى الكامل بإخوة له من الرضاع ، فاتخذهم مستشارين يرجع إليهم في أموره<sup>(٢)</sup> .

وأبقى الأيوبيون على بعض دواوين الفاطميين وموظفيها ورؤسائها . . . وكانت القلعة هي المقر الرسمي الذي تدار منه شئون الحكم والسياسة . . . وظلت كذلك إلى أواخر العهد المملوكي .

فن الدواوين التي أبقى عليها الأيوبيون ديوان الإنشاء . . . وديوان الجيوش . وكان من نظار هذا الديوان : جمال الدين بن مطروح . . . وديوان الأسطول ومن نظاره الملك العادل أخو صلاح الدين ، وديوان بيت المال ومن نظاره في أوائل الدولة الأيوبية الأسعد بن مماتي .

والمتتبع لتاريخ الأيوبيين يجد أن هناك وظائف أخرى ، فهناك الحجاب وقواد الأسطول ، وهناك أمير الطبلخانة ، وهناك أمراء جاندار السلطان الذي يستأذن السلطان في استقبال رجال الدولة ، وأعلى مراتب الأمراء : أمير مقدم ألف .

وبجانب هؤلاء مشرفون : فمنهم من يراقب الأمور المالية عامة في جهة معينة من قبل السلطان أو الأمير ، ومنهم من يراقب المطبخ السلطاني والأطبخة به .

(١) « تاريخ مصر الحديثة » لجورجي زيدان .

(٢) « السلوك » : ٢٢٠ / ١ .

وقد ساد نظام الإقطاع في مصر في عهد الأيوبيين ، وكان السلطان يقطع كبار الأمراء والقواد إقطاعات يستغلونها ، وتقوم مقام الرواتب لهم ، وقد تكون هذه الإقطاعات بلداً أو أكثر ، أو سوقاً أو ربعاً . . . .

هذه صورة عامة لنظم الحكم ، والتكوين السياسي في عهد هذه الدولة الأيوبية . وقد خضعت أكثر هذه النظم للطابع الذي اتسمت به هذه الدولة ، وهو الطابع العسكري الذي كان ممثلاً في نضالها ضد الفرنجة في الحروب الصليبية .

ولقد دعت الحروب الصليبية إلى ضروب من النشاط الحربي في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول : فقد عني صلاح الدين الأيوبي بالأسطول ، وأفرد له ديواناً خاصاً عرف بديوان الأسطول ، وعين له نواحى متعددة من الخراج ، كما زاد في إقطاعاته ، كما عني بتحصين القاهرة حيث أمر ببناء قلعة الجبل ، والسور المحيط بالقاهرة ومصر ، وكان السلطان يعنى ليلاً ونهاراً بترتيب أحوال الجنود ، وقد رصد صلاح الدين الأيوبي أموالاً ضخمة لعمارة سور دمياط ، والنظر في السلسلة التي بين البرجين ، وإعادة سور تنيس كما كان في القديم ، وأمر بإنشاء الخرايق لنقل الجنود إلى الثغور البحرية .

وقد أشاع بيبرس حياة الجند والصرامة في عهده فكان إذا ما عاد من الحرب استعرض جنوده ، واشترك هو وابنه في مناوراتهم ، وفي المعارك الكبيرة كان المتطوعون يتزاحمون على التطوع مظهرين ضروب البسالة في المقاومة الشعبية حتى كان عددهم يفوق عدد الجند ومن في الخدمة<sup>(١)</sup> .

هذا وقد وقف الأدباء بجانب الجنود في المعركة يستنجدون بشعرهم ونثرهم ويحرضون على القتال ، ويمجدون الأبطال ، ويسجلون المعارك ، ويتوعدون الأعداء ، ويتغنون بالنصر المين ، وينشدون أهازيج الحماسة فاخرين .

(١) « النجوم الزاهرة » : ٥/٨ .

## ب - ظهور المماليك :

في أواخر الدولة الأيوبية ، استكثر الصالح نجم الدين أيوب من المماليك ، وقد عرفوا بذلك الاسم لأنهم في الأصل أرقاء ، وجعلهم الصالح معظم عسكره ، وكون منهم فرقة الحرس السلطاني ، فصاروا بطانته والمحيطين بدهليزه ، وأنشأ لهم قلعة الروضة تجاه مدينة فسطاط مصر ، وأسكن بها ألف مملوك سماهم البحرية لسكنائهم بهذه القلعة على ( بحر ) النيل . وقد صار هؤلاء المماليك النفوذ في الحكم والجيش وشئون الدولة والسيطرة على المرافق العامة . مما أدى بهم إلى الطمع في الاستقلال ، وتولى زمام الأمر . . . وكان منهم شجرة الدر ، وهي أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك . . .

وبعد موت الصالح أساء ابنه تورانشاه الظن بالمماليك ، فأعرض عنهم وتوعدهم وصار إذا سكر في الليل جمع ما بين يديه من الشمع ، وضرب رؤوسها بالسيف حتى تنقطع ، ويقول : « هكذا أفعل بالبحرية » ، ويسمى كل واحد منهم باسمه ، فنفرت قلوب البحرية منه ، واتفقوا على قتله ، فضربه بيبرس البندقداري بالسيف ، فتلقاه تورانشاه بيده فبانت أصابعه ، وأخذ يصيح : جرحني البحرية ، والله لا أبقيت منهم بقية ! ! ، فقال البحرية بعضهم لبعض « أجهزوا عليه وإلا أبادكم » فدخلوا عليه بالسيوف ، ففر المعظم إلى أعلى البرج ، وأغلق بابه ، فأضرموا النار فيه ورموه بالنشاب ، فألقى نفسه من البرج هارباً إلى البحر فسبحوا خلفه في الماء وقطعوه بالسيوف قطعاً ، حتى مات جريحاً حريقاً غريقاً<sup>(١)</sup> .

واتفق المماليك على إمامة شجرة الدر سلطانة على مصر التي تزوجت من عز الدين أيبك التركماني ، فسلبها كل سلطة ، فانتقامت لنفسها بقتله ، فقتلها ابنه المنصور انتقاماً لأبيه ، وتولى الأمر من بعده ، وأعقبه على الملك سيف الدولة قطز . . . الذي كان له جهاد مذكور في رده طغيان التتار<sup>(٢)</sup> .

(١) « السلوك » : ٣٦٠ / ١ .

(٢) « السلوك » : ٤٣١ / ١ .



## ٢- الحياة الاجتماعية والاقتصادية

كانت حياة الدولة الأيوبية حياة صرامة وجدّ ، إذ شغلت بدرء خطر الفرنجة . . . ومع ذلك فقد كانت هناك مناسبات يفرغ فيها الملوك والعامّة إلى ألوان من الابتهاج والسرور ، تقام فيها الزينات ، وتعد الاحتفالات : فإذا ما وردت خلع خليفة ببغداد إلى السلطان خرج قاضي القضاة ، والشهود والمقرئون ، والخطباء إلى خيمة الواصل بالخلعة ، وزينت البلاد ، وتضرب نوب الطبلخانة<sup>(١)</sup> بالباب الناصري ثلاث مرات في كل يوم ، وضربت بدمشق خمس مرات كل يوم بالباب الغوري ، ويركب السلطان بالخلع في طريق فرشت بالبسط المزركشة .

كذلك كانت الأفراح تعم إذا ما عقدت معاهدات الصلح بين المسلمين والفرنجة ، ويكون يوم الصلح يوماً مشهوداً يشمل الفرح فيه الطائفتين لما نالهم من طول الحرب أو القتال ، فتختلط عساكر الفرنجة بعساكر المسلمين ، ويرحل جماعة من هؤلاء إلى مدن الفرنجة ، ويدخل خلق عظيم من الفرنجة إلى بلاد الإسلام زائرين آمنين<sup>(٢)</sup> ، ويتبادل ملوك الفريقين الهدايا والألطفات ، وقد أرسل ملك الفرنجة إلى الملك الكامل هدية سنّية فيها عدة خيول ، منها فرس الملك بمركب ذهب مرصع بجوهر فاخر ، فتلقاها الكامل بالقرب من القاهرة بنفسه . وجهاز الكامل ملك الفرنجة بهدية من تحف الهند والصين والعراق والشام ومصر والعجم وفيها سرج من ذهب ، وفيها جوهر بعشرة آلاف دينار مصرية<sup>(٣)</sup> . كما كانوا يحتفلون بالنصر ، فتدق البشائر في طول البلاد وعرضها ، وتمد الأسمطة السلطانية ، فتنال منها طبقات الشعب ، ويكون اليوم يوم فرح وسرور ،

(١) الطبلخانة : فرقة الموسيقى السلطانية ، وتصحب السلطان في الأسفار والحروب ( صبح الأعشى : ٢٨/٤ ) .

(٢) « السلوك » : ١١٠/١ .

(٣) « السلوك » : ٢٢٣/١ .

وترد قصائد الشعراء مهتة بالانتصار ، وتوزع الهدايا والعطايا والهبات ، وتنثر على العامة الدراهم والدنانير<sup>(١)</sup> .

ومن المواكب التي عني بها الأيوبيون والمماليك موكب الاحتفال بكسر الخليج فيكثر المتفرجون ، وتزدحم الغوغاء ، ويشترك فيه السلطان والأمراء والناس جميعاً .

وكان النوروز القبطي من جملة المواسم بمصر ، تعطل فيه الأسواق ويقل فيه سعي الناس في الطرقات ، وتفرق فيه الكسوة لرجال أهل الدولة وأولادهم ونسائهم<sup>(٢)</sup> .

وفي آخر شعبان كان قاضي القضاة يركب لرقبة الهلال<sup>(٣)</sup> ، وفي العيدين يحضر السلطان الصلاة والخطبة ، ويشمل الأمراء ، وأرباب العمامة بخلعه ، ويقدم سباط توسعت الهمة فيه ، فيؤكل ما عليه ، ثم تسقى الأشربة الحلوة ، والأفاويه المطيبة بمياه الورد المبردة<sup>(٤)</sup> .

كذلك كان يوم عاشوراء من أيام السرور التي احتفل بها الأيوبيون يوسعون فيه على عيالهم ، ويتبسطون في المطاعم ، ويصنعون الحلوى ، ويتخذون الحديد ، ويكتحلون على عكس ما كان عليه الفاطميون .

وفي أعياد النوروز ، وكسر الخليج خاصة يتجأهر الناس — بالمنكرات — ويتجمع المؤنثون والفاسقات ، وتشرب الخمر في الطرقات ، ويتراجم الناس بالبيض ، ويتصافعون بالأنطاع .

وقد كانت الحياة مزيجاً من هدى ومجون ، وطاعات ومعاص ، ففي عهد صلاح الدين كثرت بيوت المزر<sup>(٥)</sup> بالإسكندرية ، فهدم منها مائة

(١) « السلوك » : ٢١٠/١ - ٢١٢ .

(٢) « السلوك » : ١٣٧/١ .

(٣) المصدر السابق : ١٤٢ .

(٤) « خطط المقریزی » : ٢١٠/٢ - ٢١١ .

(٥) نوع من البعة يصنع من الذرة أو الشعير أو الخنطة .

وعشرين بيتاً ، وأقبل الأفضل بدمشق على اللعب ليله ونهاره ، وتظاهر بلذاته ، وفوض الأمور إلى وزيره ، ثم أقلع عن المعاصي ، وأقبل على الطاعات ، ولبس الحشن من الثياب ، وشرع في نسخ مصحف بخطه ، واتخذ لنفسه مسجداً يخلو فيه بعبادة ربه ، وجالس الفقراء ، والفقهاء ، وصام النهار ، وقام الليل<sup>(١)</sup> .

كان كل هذا في الوقت الذي رعت فيه الدولة الأيوبية طبقة الصالحين من الفقراء المتصوفين ، فبنى لهم صلاح الدين الأيوبي ، خانقاه ، ورتب لهم كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً ، وبنى لهم حماماً بجواره ، فأعفاهم من مذلة الكسب ، وتفرغوا للعبادة آمين .

ووقف السلطان صلاح الدين الأيوبي ناحية نقاة بقوص ، وثبت ناحية سنديس من القليوبية على أربعة وعشرين خادماً لخدمة الضريح النبوي الشريف<sup>(٢)</sup> .

وسار المماليك على سنة بني أيوب ، وأكثروا من بناء الخوانق ، ومكنهم من ذلك ما كان لديهم من وقت فسيح ، وما كانوا عليه من الغنى والثراء .

\* \* \*

وقد تأثرت الحياة الاقتصادية أعظم التأثير بالنيل ، فهو إن زاد كان الخصب وكان النماء ، ورخصت الأسعار وعم الرخاء ، وإن نقص كان القحط والغلاء والبلاء والجوع ، وقد توقف النيل عن الزيادة في عهد الدولة الأيوبية ، فأكل الناس القحط والكلاب ، ثم ترايد الحال حتى أكل الناس صغار بني آدم من الجوع .

وقد واجه الأمراء والملوك هذه المجاعات ، وخففوا من وقعها ، فضربوا على أيدي التجار ، ومنعواهم الاحتكار ، ووزعوا الفقراء على الأمراء : فأمير المائة يطعم مائة ، وأمير العشرة يطعم عشرة وهكذا .

(١) « السلوك » : ١١٩/١ .

(٢) « السلوك » : ٥٧/١ .



وكانت الزكوات تجمع وتفرق في مصارفها ، وأخذت الزكاة من البضائع وعلى المواشى والنخل والحضراوات<sup>(١)</sup> .

واهتم الأيوبيون بالزراعة وتربية الماشية كالأبقار والأغنام ، وقد كان من الغلات المشهورة في عهدهم : القمح ، والشعير ، والفل ، وقصب السكر ، والنخيل ، والرمان ، والقطن ، وقد أقيمت على هذه الحاصلات ضروب من الصناعة كغزل القطن ونسجه ، وصنع أثاث المنازل ، واتخاذ الملابس من الصوف والقطن والحرير ، وصناعة الحلوى التي كانت لها منزلة في الأسمطة السلطانية التي تمتد في الأعياد ، ويبعث منها مقادير كبيرة إلى منازل الوزراء وكبار رجال الدولة<sup>(٢)</sup> .

كذلك أنشأ الأيوبيون أسطولا لنقل المتاجر ، وكان أكثر تجارتهم مع بلاد النوبة ، وبلاد الشرق الأوسط ، وبحر الروم ، ومن التجارات الراجعة في ذلك العصر تجارة الرقيق الذين كانوا يؤلفون جزءاً من جيش الخلافة ، وكانت قوص مركزاً مهماً للتجارة تمر بها القوافل التجارية الذاهبة إلى البحر الأحمر ، والراجعة منه ، ونهضت التجارة واتسع نطاقها بعد أن أمن صلاح الدين طريق الشرق التجاري بانتصاره على الصليبيين في الشام<sup>(٣)</sup> .

وفي ظل من النشاط الاقتصادي زادت حركة البناء والتعمير ، فقد عهد صلاح الدين إلى وزيره الأمير بهاء الدين في أن يقيم البنايات اللازمة لرونق البلاد ومنعتها ، فأنفذ بهاء الدين ما عهد إليه بهمة ونشاط ، فهد الطرق ، وحفر الترع ، وأقام الجسور ، والسدود ، واستخدم لذلك حجارة بعض الأهرام الصغيرة التي كانت تحيط بأهرام الجيزة ، وأنشأ طريقاً يمتد طولا على الضفة النيل سهل صلات العاصمة مع مصر العليا والسفلى ، ووضع أساس قلعة الجبل عند الطرف الشمالى من جبل المقطم وعلى سفحه وما تزال آثارها باقية إلى اليوم ، وتعرف

(١) « السلوك » : ٤٤/١ - ٤٥ .

(٢) « خطط المقرئى » : ٢١٠/٢ - ٢١١ .

(٣) « معجم البلدان » لياقوت : قوص .

بقلعة الجبل أو قلعة القاهرة .

وجعل بهاء الدين في القلعة بئراً عميقة تمتد الجنود بالماء تسمى بئر يوسف ،  
ويظن بعض العامة أنها سميت بذلك نسبة إلى يوسف الصديق بن يعقوب ،  
والصحيح أنها منسوبة إلى يوسف صلاح الدين بن أيوب .

كما ابنتى بهاء الدين صوامع كبيرة في الفسطاط لحزن الحاصلات ، ولما  
فرغ من ذلك أخذ يهتم بإتمام سور القاهرة ، فبناه سوراً ضخماً عظيم الاتساع  
يحيط بالقاهرة والقلعة ، وبني قلعة المقس ، وهى برج كبير جعله على النيل  
بجانب جامع المقس الذى يعرف اليوم بجامع أولاد عنان .

كما بنى الأمير فخر الدين جهار كس قيسارية بالقاهرة ، وهى التى قال عنها  
التجار الذين طافوا بالبلاد : لم نر فى شىء من البلاد مثلها فى حسنها وعظمتها  
وإحكام بنائها ، وقد بنى فخر الدين بأعلاها مسجداً كبيراً ، وربعاً معلقاً .

وكان بالقاهرة — فى ذلك الحين — دار تسمى دار التفاح تجاه باب زويلة  
تزد إليها الفواكه على اختلاف أصنافها مما ينبت فى بساتين ضواحي القاهرة<sup>(١)</sup> ،  
وقد شرع الملك الكامل سنة ٦٢٨ هـ فى حفر النيل وعمل فيه بنفسه ، وعمل  
معه الأمراء والجنود ، واستمر الماء فيما بين مصر والروضة لا ينقطع فى زمن  
الاحتراق ألبته .

وكان الملك الكامل عند زيادة النيل يخرج بنفسه ، ويشرف على حراسة  
الجسور ، ورتب فى كل جسر من الأمراء من يتولاه ومتى اختل جسر عاقب  
متوليه أشد العقوبة ، فعمرت أرض مصر فى أيامه عمارة زائدة . . .<sup>(٢)</sup> وهو الذى  
بنى مدينة المنصورة تخليداً لاتتصاهه على الصليبيين . . .

(١) « السلوك » : ١٤٨/١ .

(٢) المصدر السابق : ٢٤١ - ٢٤٨ .

### ٣ - الحياة الثقافية

نشطت الحياة الثقافية في عهد الدولة الأيوبية والعصر المملوكي ، وربما كان لهذا الاتصال الطويل بين الشرق والغرب في الحروب الصليبية أثر في هذا النشاط .

وكان ملوك بني أيوب يحبون العلم ، ويحتفون بالعلماء ، ويجالسونهم ويسمعون منهم ، فهذا صلاح الدين يوسف بن أيوب كان يجالس المشايخ من أهل العلم ، وكان يقف صادر الإفرنج على الفقهاء ، كما وقف عليهم الضرائب التي كانت تفرض على تجار الفرنج الواصلين بالمتاجر من بلادهم إلى ميناء الإسكندرية ، وسمع الحديث على الحافظ أبي الطاهر أحمد السلفي ، كما قرأ الموطأ على الفقيه أبي الطاهر بن عوف ، وقرأ عليه جزء من الحديث بين الصفيين وهو على ظهر فرسه<sup>(١)</sup> .

وقد سمع العزيز عماد الدين بن صلاح الدين ( ت ٥٨٩ هـ ) - الحديث من السلفي وابن عوف ، وحدث<sup>(٢)</sup> ، كما سمع الملك العادل منهما ، وكان يحب السنة ويكرم العلماء ، وله صنف الإمام فخر الدين الرازي كتاب « تأسيس التقديس » بعث به إليه من بلاد خراسان<sup>(٣)</sup> .

وكان الملك المنصور ناصر الدين ( ت ٦٢٢ هـ ) إماماً مفتياً في عدة علوم ، وله شعر جيد . وكذلك كان الملك الأفضل على بن صلاح الدين<sup>(٤)</sup> .

ولم يقتصر هذا النشاط على علوم الشريعة واللغة ، بل تعدتها - بقدر - إلى الرياضة ، والحكمة ، والهندسة ، قالوا : « ولما رحل إمبراطور الفرنجة إلى عكا وكان عالماً متبحراً في علم الهندسة ، والحساب ، والرياضيات - بعث إلى الملك

( ١ ) « السلوك » : ٤٣/١ .

( ٢ ) « السلوك » : ٤٢/١ .

( ٣ ) « السلوك » : ١٩٤/١ .

( ٤ ) « السلوك » : ٢١٦/١ - ٢١٧ .



الكامل بعدة مسائل مشكلة في الهندسة والحكمة والرياضة ، فعرضها على الشيخ علم الدين قيصر الحنفى - المعروف بتعاسيف - فكتب جوابها<sup>(١)</sup> .

وجرت بين يدى تورانشاه ( ت ٦٤٨ هـ ) المباحثات والمناظرات فى أنواع من العلوم وكان قد مهر فيها ، وعرف الخلاف والفقه ، والأصول ، وكان جده الملك الكامل يحبه لميله إلى العلم ، ويلقى عليه من صغره المسائل المشكلة ، ويأمره بعرضها وامتحان الفقهاء بها فى مجلسه ، ولأزم تورانشاه الاشتغال بالعلم إلى أن برع<sup>(٢)</sup> .

وكانت زيارة سلطان مصر إلى الشام فرصة يحسن فيها إلى الناس ، ويخلع على الأعيان ، ويتصدق على أهل المدارس والربط . . . . . واقتدى المماليك بالأيوبيين فى رعايتهم للعلم والعلماء .

وكانت المساجد والخوانق والرباطات والزوايا معاهد دينية إسلامية للرجال والنساء ، كما كانت مأوى المنقطعين للعلم والزهادة والعبادة ، الواردين من البلاد الشاسعة .

واشتهر من الخوانق خانقاه : سعيد السعداء ، أحدثها صلاح الدين الأيوبي ووقفها على فقهاء الصوفية ، وولى عليهم شيخاً نعت « بشيخ الشيوخ » ووقف عليهم بستان الحبانية بجوار بركة الفيل ، ورتب للصوفية فى كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً .

وأنشئ كثير من المدارس فى العصر الأيوبي ، والمملوكى ، وتسابق فى إنشائها الملوك والأمراء ، والوزراء ، ومستخدمو الدولة والأغنياء والمدرسون ، كما ساهم أغنياء التجار فى إقامة دور العلم<sup>(٣)</sup> .

كما ساهمت سيدات الأسرة الأيوبية مساهمة مثمرة فى تشييد المدارس ،

(١) « السلوك » : ٢٣٢/٢ .

(٢) « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » لابن واصل : ٣٦٧ ب .

(٣) « خطط المقرئى » : ١٩٤ - وخطط الشام : ١٠٠/٦ .

والوقوف عليها<sup>(١)</sup>.

بل شاد بعض الخدم بعض المدارس ، مقتفين بذلك أثر سادتهم<sup>(٢)</sup> .  
وامتلأت دور الكتب العامة والخاصة بالمجلدات ، قالوا : « لما وقعت الحوطة  
على دار القاضي الأشرف أحمد بن القاضي الفاضل حملت خزائن الكتب  
جميعها إلى قلعة الجبل ، وجملة الكتب ثمانية وستون ألف مجلد ، وحمل من  
داره خشب خزائن الكتب منفصلة ، وحملها تسعة وأربعون جملاً ، والجمال  
التي حملت الكتب تسعة وخمسون : على ثلاث دفعات ، ومن جملة الكتب  
المأخوذة كتاب « الأليك والغصون » لأبي العلاء المعري في ستين مجلداً<sup>(٣)</sup> .

وكانت قوص - وإليها نسب البهاء زهير - مركزاً من المراكز الثقافية في  
ذلك العهد بجانب القاهرة والإسكندرية ودمشق وحلب ، وقد حفلت قوص  
بالمدارس التي درس فيها طائفة من مشهورى العلماء ، فيهم ابن دقيق العيد ،  
وكثير من رجال أسرته ، وقد غلب على مدينة قوص الزهد والتصوف والعلم .  
وقد سار الأيوبيون على سنة الفاطميين في احتفالهم بدور الكتب ،  
فأنشأوا في المدارس التي أسسوها خزائن للكتب ، ورتبوا قوَّاماً يشرفون عليها .  
واحتل أدباء هذا العصر مكانة عالية : كانوا أصحاب السر من السلاطين  
وبمنازل الوزراء منهم ، وكان لهم مكان الإجلال ، ولما سار القاضي الفاضل من  
دمشق ولحق بالقاهرة خرج السلطان العزيز بن صلاح الدين إلى لقائه ، وأجل  
قدمه وأكرمه ، وقد فوض الأفضل أموره كلها لضياء الدين بن الأثير .  
وقد سفر الأدباء عند الملوك ، يحاولون الإصلاح بينهم ويسعون بفك الاعتقال  
عنهم كما فعل محيي الدين بن الجوزى ، وجمال الدين بن مطروح<sup>(٤)</sup> .

(١) « ذيل الروضتين » لأبي شامة : ١١٩ و « المختصر في أخبار البشر » لأبي الفداء :

١٧٤/٣ .

(٢) « ذيل الروضتين » لأبي شامة ٥٩ ، و « النجوم الزاهرة » : ٢٦٤/٦ .

(٣) « السلوك » : ٢٣٢/٢ .

(٤) « السلوك » : ٢٩٣/١ .

أما الفقهاء والمتصوفة وشيوخ الإسلام فقد كانوا من الدولة في مكان القيادة والريادة ، جلسوا إلى دار العدل للقضاء نيابة عن السلطان ، ودافعوا عن حقوق الشعب ، ووقفوا في وجوه الحكام ، وأصدروا الفتاوى الجزئية في شجاعة أدبية تعز عن النظر ، وكانوا قدوة صالحة في تمسكهم بالمثل العليا وتعاليم الإسلام ، ونالهم في سبيل الحفاظ على مثلهم الأذى : أبعدوا عن مناصبهم ، واعتقلوا ، فما وهنوا ولا استكانوا .



## الفصل الثانى

### البهاء زهير فى عصره

#### ١ - حياته

##### ١ - نسبه :

أملى البهاء زهير نسبه على معاصره ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان ، وذكر أنه أبو الفضل زهير محمد بن على بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عاصم المهلبى العتكى الأزدى .

ويزيد صاحب الشذرات على هذه النسبة : المكى ثم القوصى . كذلك أخبر البهاء زهير صاحب الوفيات أن نسبه إلى المهلب بن أبى صفرة ، والمهلب هذا له مكان فى التاريخ فهو صاحب الحروب والفتوح ، قال عنه أبو إسحق السبيعى : « لم أر أميراً أئمن نقيبة ، ولا أشجع لقاء ، ولا أبعد مما يكره ، ولا أقرب مما يحب من المهلب » . ووصفه عبد الله بن الزبير بأنه سيد العراق .

##### ب - كنيته :

يكنى البهاء زهير بأبى الفضل كما ترى فى سلسلة نسبه التى رواها عنه ابن خلكان ، وقد رأيت صاحب النجوم الزاهرة يكنيه كذلك بأبى العلاء ، وقد ذكره بهاتين الكنيتين أيضاً صاحب الشذرات .

##### ج - لقبه :

كان البهاء زهير يلقب « بهاء الدين »<sup>(١)</sup> . وأول من لقب بالإضافة إلى الدين — كما يقول القلقشندى — بهاء الدولة بن

---

(١) « وفيات الأعيان » : ٨١/٢ .

عضد الدولة بن بويه . فقد زاد : نظام الدين على لقبه ، فكان يلقب : بهاء الدولة نظام الدين . وكانت الألقاب مضافة إلى الدين بمنحها كبار الدولة بإذن من السلطان ، وبمضى الزمن استعملها الناس من غير حاجة إلى إذن ، فكان شمس الدين ، وعز الدين ، وشهاب الدين ، وبهاء الدين . . . .  
 د — مسقط رأسه :

قال البهاء لابن خلكان : إن مولده بمكة في خامس ذي الحجة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ، وقال له مرة أخرى : إنه ولد بوادي نخلة<sup>(١)</sup> . . . .  
 وليس بين القولين تناقض أو اختلاف : ففي ذكر مكة — في القول الأول — تعريف بالأشهر الأعرف من بلاد الحجاز ، وفي ذكر وادي نخلة — في القول الآخر — تحديد للمولد على وجه التعيين والتخصيص . . . . هذا إلى قرب الشقة بين البلدين ، فنخلة — كما يقول ياقوت — واد بالحجاز بينه وبين مكة مسيرة ليلتين ، إحدى الليلتين من نخلة يجتمع بها حاجّ اليمين وأهل نجد . . . . فيجتمع حاجّهم بالوباءة وهي أعلى نخلة ، وتسمى : نخلة اليمانية . . . . وتسمى النخلة الأخرى : الشامية وهي ذات عرق ، وأعلى نخلة ذات عرق كانت لبني سعد ابن بكر الذين أرضعوا رسول الله<sup>(٢)</sup> . . . .  
 هـ — طفولته وصباه :

قضى البهاء زهير طفولته وشطراً من صباه في الحجاز ، ثم انتقل إلى قوص ، ولا يعرف على التحديد متى انتقل البهاء إلى الصعيد ، ولكن عبارة ابن خلكان في الوفيات تهدي إلى أن البهاء كان بقوص صبيّاً ، وذلك إذ يقول في ترجمة ابن مطروح : « من أهل صعيد مصر ، ونشأ هناك ، وأقام بقوص مدة<sup>(٣)</sup> » ثم قال : « وكانت بينه وبين بهاء الدين زهير صحبة قديمة من زمن الصبا ، وإقامتهما

(١) « وفيات الأعيان » : ٨٥ / ٢ .

(٢) « معجم البلدان » ، نخلة .

(٣) « وفيات الأعيان » : ٣٠٢ / ٦ .

ببلاد الصعيد ، حتى كانا كالأخوين . . . (١) .

هذا كلام ابن خلكان ، على حين أن البهاء يقرر في أبيات له أنه قضى  
زمن الصبا في مسقط رأسه في الحجاز ، وذلك إذ يقول في قصيدة منها :

(سقى الله أرضاً لست أنسى عهودها)      ويا طول شوقي نحوها وحنيني !  
منازل كانت لي بهن منازل      وكان الصبا إلقي بها وقريني  
تذكرت عهداً بالمحصب من منى      وما دونه من أبطح وحبجون  
وأيامنا بين المقام وزمزم      وإخواننا من وافد وقطين  
زمان عهدت الوقت لي فيه واسعا      كما شئت من جدٍّ به ومجون  
إذ العيش نضر ، فيه للعين منظر      وإذا وجهه غص بغير غصون

وليس من العسير التوفيق بين ما يدل عليه هذا البيت من أن البهاء قضى  
صباه بالحجاز ، وبين ما يقرره ابن خلكان من أن البهاء كان صبيّاً عند ما  
انتقل إلى قوص ، فالتوفيق بين القولين أمر يسير ، فالبهاء قد قضى شطراً  
من صباه بالحجاز ، ثم انتقل - صبيّاً كذلك - إلى « قوص » حيث نشأ فيها ،  
ونسب إليها ، وصحب فيها ابن مطروح .

و - دراسة وثقافته :

يلقى الديوان - كما تلقى كتب التراجم والتاريخ العام - أعضاء على حياة  
البهاء زهير يتهدى بها الباحث في تناول ما كان عليه من ثقافة ، وما أصاب من  
معارف كانت شائعة في عصره . . .

فابن خلكان يذكره على أنه من أحسن الفضلاء في عصره نظماً ، ونثراً ،  
ونحطاً (٢) . . .

ثم هو قد تولى ديوان الإنشاء ، ومن تولى هذا الديوان كان في الدرجة العليا

(١) « وفيات الأعيان » : ٣٠٦/٦ .

(٢) « وفيات الأعيان » : ٨١/٢ .

من البلاغة والبيان . . . (١)

وقد ربّى البهاء زهير في « قوص » وهي يومئذ مدينة كبيرة عظيمة واسعة ،  
قصة صعيد مصر ، وأهلها أرباب ثروة واسعة<sup>(٢)</sup> وقد غنى ولاتها ورؤساؤها  
بإنشاء المدارس بها ، وزودوها بالخزن التي احتوت جملة صالحة من الكتب  
النافعة ، واستقدموا لها مشهورى العلماء للتدريس بها<sup>(٣)</sup> وبذلك كانت « قوص »  
مركزاً هاماً من مراكز الثقافة في ذلك العهد البعيد ، ومعينا فياضاً بالعلم ينهل  
منه كل من يريد . . .

وشعر البهاء يكشف عن مظاهر الثقافة العربية بألوانها المختلفة ، سواء  
أكانت شرعية ، أم لغوية ، أم أدبية . . .

فمن تعابيره الكاشفة عن ثقافته الشرعية واقتباسه من القرآن الكريم قوله :  
هذه قصتي ، وهذا حديثي ولك الأمر فاقض ما أنت قاضي  
ومن تعبيراته الفقهية قوله :

يا من ولّائي فيه نصّ بينّ والنصّ عند القوم لن يتأولا

ومن استعماله لألفاظ مصطلح الحديث قوله :  
مولى له في الناس ذكرٌ مُرسلٌ قد أوردته السحبُ عنه مُسنّدا  
ويذكر المحدثين فيقول :

فللدمع من عيني معينٌ يمدّه فإن تسألوه تسألوا ابنَ معينٍ

ويذكر الناسخ والمنسوخ في قوله :  
أبدأ حديثي ليسَ بال منسوخ إلا في الدفاتر

ويقتبس من الحديث الشريف في قوله :

(١) « صبح الأعشى » .

(٢) « معجم البلدان » : قوص .

(٣) « الطالع السعيد » : ٣٢٠ - ٣٢٥ .



هو للحسن مَشْرِقٌ فيه قد تَظَهَّرَ الفتن (١)

ومن تعبيراته الفلسفية والكلامية قوله :

ويشرقُ وجهُ الأرض حين تحلُّها كأنك توحيدٌ حوته ، وإيمانُ

وقوله :

هذا هو الأدب الذى أنشأته فاهترَّ منه روضُه المطلُّول  
عطَلته لما رأيتك معرضاً عنه ، وما من مَذْهَبِي التعطيل

ومن التعبيرات التى تكشف عن ثقافته الأدبية قوله :

سيرضيك منها ما يزيد على الرضا ويستعبدُ ابنَ العبدِ والمتكلمسا (٢)

وقوله :

ورب راية مجد قد كنتُ فيها عرابة (٣)

وقوله مشيراً إلى الأمثال :

على مثلها يبكى المحب صباة فيا مقلتي ، لا عطر بعد عروس

وهو قارئ يتخذ أنيساً له الكتب الأدبية :

أنا فى البستان وحدى فى رياضِ سندسيه  
ليس لى فيه أنيس غير كتبِ أدبيه

ومن تعبيراته النحوية قوله :

عسى عطفه للوصل يا واو صدغه على ، فإنى أعرف الواو تعطف

(١) روى الإمام البخارى فى باب قول النبى « الفتنة من قبل المشرق » - أن النبى قام إلى جنب المنبر فقال : الفتنة ههنا ! الفتنة ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان أو قال : قرن الشمس .

(٢) ابن العبد : هو طرفة الشاعر الجاهلى المشهور . والمتكلمس شاعر جاهلى مات قبل الهجرة بخمسين سنة .

(٣) أحد أجواد العرب المشهورين وفيه يقول الشاعر :

إذا ما راية رفعت المجد تلقفها عرابة باليمين

وقوله :

جعلتكم خبرى فى الحب مبتدئاً وكل معرفة لي فى الهوى نكره  
ويكره أن يكون مخالفاً للنحاة ، فإن ظهر فى شعره شىء من ذلك أوله  
بما يتفق هو والنحو :

بروحى من أسمىها ( بستى ) فتنظر لى النحاة بعين مَقْتِ  
يرونَ بأننى قد قلت لحناً وكيف وإننى لزهيرُ وقتى  
ولكن عادةً ملكت جهاتى فلا لحنٌ إذا ما قلت : ستى

وبعد : فإن حفاوة السلاطين بالعلماء ، وافتتاح المدارس ودور العلم ،  
وتربية البهاء فى قوص وهى مركز من مراكز الثقافة فى ذلك العصر ، وميله  
الفطرى إلى القراءة ، وآماله العريضة فى الوصول إلى أعلى المناصب - كل ذلك  
كان بعض ما جعله يهتم بالثقافة على اختلاف مظاهرها ، وتعدد أنواعها وكان  
لذلك أثره فى تعابيره على النحو الذى رأيت .

ز - اتصاله بأعيان عصره :

( ١ ) جمال الدين بن مطروح <sup>(١)</sup> :

لم تتضح صلات البهاء بأعيان عصره إلا بعد انتقاله إلى قوص ، وتعلمه  
بها ، وتخرجه فى مدارسها ، ويبدو أن أول من اتصل به من الأعيان هو الشاعر  
جمال الدين بن مطروح ، وقد كان ابن مطروح من أهل صعيد مصر ، ونشأ  
هناك ، وأقام بقوص مدة <sup>(٢)</sup> وتأكدت الصلة بينه وبين البهاء حتى كانا  
كالأخوين <sup>(٣)</sup> :

( ٢ ) المكرم مجد الدين بن إسماعيل اللمطى :

وفى قوص كذلك يتصل البهاء بمجد الدين بن إسماعيل اللمطى حاكم قوص

( ١ ) « ابن مطروح » : ( ٥٩٢ - ٦٤٩ ) هـ .

( ٢ ) « وفيات الأعيان » : ٣٠٢/٥ .

( ٣ ) « وفيات الأعيان » : ٣٠٦/٥ .

وهو يبنى كالبهاء :

تعزى لقوم سادة يمنية أعلى الورى قدراً ، وأزكى محتداً  
ولعل اجتماعهما فى النسب اليمنى قرب ما بينهما ، وكان سبباً فى التواصل ،  
وقد ولى اللمطى هذا قوصاً فى ذى القعدة سنة ٦٠٦ هـ ، وفى ديوان البهاء قصائد  
ست مدح بها هذا الحاكم ، وهذه القصائد تصور تطور العلاقات بينهما :  
فالقصيد الأولى أرخت فى ديوانه سنة ٦٠٧ هـ ، وذكر أنها أولى مدائحه ،  
وفىها يبنى اللمطى بولايته أعمال قوص ، وفيها يقول :

ورب قوافٍ قد طويتُ برودها فلم أرضَ أن تغدو لغيرك ملبساً  
أقمن حبيسات كحبسك من جنى على أنها لم تجن يوماً فتحبساً  
فها هى كالوحشى من طول حبسها عساها بيرٌ منك أن تتأنساً  
وهذه الأبيات صريحة فى أن هذه القصيدة أولى مدائح البهاء ، كما أنه فى  
البيت الأخير يرجو من الأمير بره وخيره ، كما يرجو أن يوالى بره ويتابعه فى  
البيت الذى يقول فيه :

وإن بدأ النعمى تلاها بمثلها فتردادٌ حسناً كالقريض مجنساً

\* \* \*

وأكد البهاء صلته بمجد الدين اللمطى فتراه يهته بشهر الصوم سنة ٦٠٩ هـ :  
وإفاك شهر الصوم يا من قدره فينا كايلة قدره لن يُجحداً  
وبين موقف الأمير منه فى البر والرعاية ، وذلك إذ يقول :

مولى بدا من غير مسألة بما حاز الندا كرمأ ، وعاد كما بدا

\* \* \*

ثم تقع بين الشاعر والأمير جفوة ، فيرسل البهاء عتابه فى قصيدة طويلة ،  
نستنتج منها أن مجد الدين اللمطى ، قد وعد البهاء وعداً ، والبهاء يستنجز الوفاء  
به ، وأن الأمير اتخذ البهاء كاتباً ثم صرفه عن الكتابة ، وأن البهاء متألم لهذه الفقرة :  
لنا عندكم وعد فهل وفيتم ؟ وقلتم لنا قولاً فهل فعلتم  
ومثلك لا يأسى على فقد كاتبٍ ولكنه يأسى عليك ويندم

ويرى البهاء أن الأمير قد مل صحبته ، فيأسى لذلك ويأسف ، ويرسل يهنئه بالعيد ، ويمزج ذلك بالحسرة على أيام قضائها في خدمة الأمير ، ويستعطفه وذلك إذ يقول :

مولاي دعوة من أطلت جفائه وعلى جفائك إنه لوصول  
يدعوك مملوك يراك ملته أنا ذلك المملوك والمملول

( ٣ ) الوزير صاحب صفي الدين بن شكر :

وقد وزر ابن شكر للملك العادل ( ت ٦١٥ هـ ) .

وكانت خلع الخليفة ترد إلى العادل وأبنائه كما ترد إلى وزيره صاحب ابن شكر ، هذا ، مما يدل على أنه بلغ مكانة عظيمة<sup>(١)</sup> حتى حصلت بينه وبين العادل منافرة أوجبت غضب العادل عليه ، وسفره إلى البرية ، فركب وجهاء القوم حتى لحقوه ، وقدموا به على العادل فرضى عنه ، ومن حينئذ انحطت منزلة ابن شكر ، وكان ذلك في سنة ٦٠٦ هـ .

وقد تغير العادل على ابن شكر مرة أخرى سنة ٦٠٩ هـ ، فأقاله من الوزارة<sup>(٢)</sup> وأخرجه إلى آمد ، فلم يزل بها حتى مات العادل ، ولما ولى الكامل استدعى ابن شكر من آمد وأكرمه . . . واستوزره ست سنوات وانكف بصره وهو يباشر الوزارة حتى مات .

هذا هو صاحب صفي الدين بن شكر ، وتلك منزلته في التاريخ السياسي من دولة الأيوبيين ، وقد بلغت منزلته أوج عظمتها زمن العادل ، وأغرقت هذه المكانة البهاء أن يرسل إليه بشعره مادحاً يستدر عطفه ، ويستميح فضله ، ويذكر له أن حرفة الأدب حالت بينه وبين تحقيق ما يرجوه من رغبات :

ومما دهاني حرفة أدبية غدت دون إدراك المطالب خندقاً  
وإن شملتني نظرة صاحبية فلست أرى يوماً من الدهر مملقاً

( ١ ) « السلوك » : ١٦٩/١ .

( ٢ ) « السلوك » : ١٠١/١ .



ويظهر من هذه القصيدة أن ابن شكر كان مؤلفاً، وكانت له مشاركة في فروع الثقافة التي سادت حينئذ :

وكم لك فينا من كتاب مصنف تركت به وجه الشريعة مشرقاً  
عكفنا عليه نجتني من فتونه فعلمتا هذا الكلام المؤثقا

#### ( ٤ ) الملك العادل :

ويرقى البهاء في صلاته بأعيان عصره إلى الملوك والسلاطين ، بعد الأمراء والوزراء فيتصل بالملك العادل ويمدحه ، ويأنس إليه ، ويجد الأمن والطمأنينة عنده :

أمنتُ بـلقياكَ الزمانَ وصرفه فغيري من يخشى عليه اهتضامه

#### ( ٥ ) الملك الكامل :

وهو ابن الملك العادل ، وفي عهده انتصر على الفرنجة في معركة دمياط وكان لهذا الانتصار فرحة هزت المشاعر ، وفتقت قرائح الشعراء ، وأرسل البهاء إلى الكامل مدحة في مطلعها :

بك اهتزَّ عطفُ الدين في حُلُلِ النصر وردَّت على أعقابها ملةُ الكفر

#### ( ٦ ) الملك المسعود يوسف بن الكامل :

وكان الملك المسعود كذلك ممن اتصل بهم البهاء ، وقد صرح البهاء بآماله وأطماعه في قصيدة أرسلها للمسعود من قوص ، وأنه يود أن يكون شاعر القصر ، ويبن أن له من المواهب ما ينشر بها ذكر الملك المسعود بين الملوك .

فيا صاحبي هب لي بحقك وقفة يكون بها عندي لك الحمد والأجر  
لدى ملكٍ رحب الخليفة قاهر فجلسه الدنيا ، ونخادمه الدهر  
سأذكرى له بين الملوك مجامراً فمن ذكره نداءً ، ومن فكرى الجمر

ويستجيب الملك المسعود لرغبة البهاء ، ويحقق آماله ، فيقربه منه ، حتى

يحييها إيوان ، ويعظم هذا القرب في عيني البهاء فلا يدري أفي يقظة هو أم في منام :

وقد قرب الله المسافة بيننا      فيها      أنا      يحويني وإياه إيوان  
أشك وقد عاينته في قدومه      وأمسح عن عيني ، هل أنا وسنان ؟  
( ٧ ) الملك الصالح نجم الدين أيوب :

ويبتسم الزمن للبهاء زهير ، وتقبل الدنيا عليه ، فيرغب الملك الصالح  
نجم الدين أيوب في أن تتوثق صلة البهاء به ، فلا يسع البهاء إلا أن يستجيب  
لرغبة الصالح أيوب ، ويجد في الاتصال به غنى عمن سواه ، كما يجد الطمأنينة  
والاستقرار .

ووجه الملك الصالح البهاء إلى البلاد الشرقية حتى إذا ملك الصالح مدينة  
دمشق عاد البهاء إليها كاتباً للملك الصالح ، وظل كذلك حتى طمع الملك  
عماد الدين إسماعيل في ابن أخيه الصالح أيوب ، واستمال عماد الدين عسكر  
الصالح ، ففارقوه ، وبقي الصالح نجم الدين في دون المائة من أمرائه وأجناده ،  
وثبت معه البهاء زهير ، ونزل الصالح نجم الدين بنابلس ، فسار إليه الملك الناصر  
داود بعساكره فقبض عليه ، وأركبه على بغلة في إهانة ، وأقام البهاء في نابلس  
على الوفاء لصاحبه الملك الصالح حتى تم الصلح بينه وبين الناصر داود على أن  
تكون ديار مصر للصالح ، والشام والشرق للناصر ، وعاد البهاء إلى خدمة الملك  
الصالح سنة ٦٣٧ هـ ، وأقام عنده في أعلى منزلة ، واختص به ، وولاه ديوان الإنشاء :  
يقرأ الكتب الواردة على السلطان ، ويكتب أجوبتها ، ويصرف المراسيم .

وندبه الملك الصالح نجم الدين إلى مهام الأمور : بعثه إلى الناصر صاحب  
حلب يطلب تسليم الصالح عماد الدين إسماعيل إليه ، ولكن الناصر لم يشأ  
تسليمه ؛ لأنه رأى في ذلك ، إخفاقاً للذمة « وليس من المروءة إذا استجار إنسان  
بإنسان أن يخفر ذمته ويسلمه إلى عدوه » فرجع البهاء إلى السلطان الملك الصالح  
نجم الدين ، وقد عظم عليه جواب الناصر إليه .

وبقى البهاء في خدمة الملك الصالح حتى سنة ٨٤٧ هـ ، وهي السنة التي مات فيها الصالح أيوب ، وقبيل موته صرف البهاء من خدمته ، وغضب عليه .

ويقول المؤرخون في سبب تغير الملك الصالح على البهاء : « إن البهاء كتب عن الملك الصالح كتاباً إلى الملك الناصر داود صاحب الكرك ، وأدخل الكتاب إلى الملك الصالح ليعلم عليه على العادة ، فلما وقف عليه الملك الصالح كتب بخطه بين الأسطر : « أنت تعرف قلة عقل ابن عمي ، وأنه يجب من يصله ويعطيه من يده ، فاكتب له غير هذا الكتاب ما يعجبه » ، وسير الكتاب إلى البهاء زهير ليغيره ، والبهاء زهير مشغول ، فأعطاه لفخر الدين إبراهيم بن لقمان ، فأمره بختمه فختمه ، وجهزه إلى الناصر على يد نجاب ولم يتأمله ، فسافر به النجاب لوقته ، واستبطأ الملك الصالح عود الكتاب إليه ليعلم عليه ، ثم سأل عنه بهاء الدين زهيراً بعد ذلك وقال له : ما وقفت على ما كتبت بخطي بين الأسطر ؟ قال البهاء : ومن يجسر أن يقف على ما كتبه السلطان بخطه إلى ابن عمه : وأخبره أنه سير الكتاب مع النجاب ، فقامت قيامة السلطان وسيرا في طلب النجاب فلم يدركوه ، ووصل الكتاب إلى الملك الناصر بالكرك ، فعظم عليه وتألم له . ثم كتب جوابه إلى الملك الصالح وهو يعتب عليه فيه العتب المؤلم ويقول له فيه : « والله ما بي ما يصدر منك في حق ، وإنما بي إطلاع كتابك على مثل هذا » ، فعز ذلك على الملك الصالح ، وغضب على بهاء الدين زهير ، وبهاء الدين لكثرة مروءته ينسب ذلك إلى نفسه ، ولم ينسبه لكاتب الكتاب وهو فخر الدين ابن لقمان .

وكان الملك الصالح كثير التخليل والغضب والمؤاخذه على الذنب الصغير ، والمعاقبة على الوهم ، لا يقبل عثرة ولا يقبل معذرة .

( ٨ ) الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ :

ولما مات السلطان الصالح أيوب أخفت زوجته شجرة الدر خبر موته خوفاً من الفرنج ، واتفقت مع الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ - وكان أقرب الناس

إلى السلطان — على أن يقوم بتدبير المملكة إلى أن يقدم تورانشاه ، فاستدعى الأمير فخر الدين بهاء الدين زهيراً من القاهرة إلى المنصورة ليحلف مع أكابر الدولة وأجنادها للسلطان ولابنه تورانشاه أن يكون سلطاناً من بعده فحلفوا جميعاً ظناً منهم أن السلطان حي .

وأعاد الأمير فخر الدين البهاء زهيراً إلى منصبه ، ثم تطورت الأمور ، وأعرض تورانشاه عن ممالك أبيه ، واطرح الأمراء والأكابر أهل الحل والعقد ، وقدم الأراذل ، وأبعد البهاء زهيراً عن عمله مع من أبعد .

( ٩ ) الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين :

مضى البهاء إلى بلاد الشام يمدح الناصر يوسف بن العزيز وقد ملك دمشق سنة ٦٤٨ هـ ، ويعرض البهاء على الناصر بضاعته ، ويثبه شكواه ، ويفصح عن آماله ، ويرجو عنده صلاح حاله ، ويغريه أن يجعله صاحب إمارة :

فما يوسف يقرى بناب مسنة ولا العرق مفصود ، ولا الشاة تذببح  
وبعض عطايا المدائن والقرى فن ذا الذي في ذلك البحر يسبح  
ومع هذا لم تتحقق آمال البهاء ، ولم تنجل خطوبه ، ولم ينجح في بغيته ، فأخذ يشكو إلى يوسف بن عبد العزيز ما يلقاه من البؤس والفاقة ، ويطلب منه أن يعينه على أحداث الزمان وذلك في قصيدته التي مطلعها :

طريقتك المثلى أجل وأشرف وسيرتك الحسنى أبر وأراف

( ١٠ ) الملك المنصور على بن الملك العزيز بن الملك المعز أيبك الصالحى :

وهو آخر من اتصل به من الملوك ، وفي ديوانه مدحة له ( مؤرخة : ٦٦٥ هـ ) وفيها يؤكد إخلاصه للمنصور على ، ويرجو منه أن يوليه النعمة ، ويشد أزره :  
لعل الذى فى أول العمر فاتنى تعوضنيه أنت فى آخر العمر  
ولم تحقق الأقدار ما تمنى البهاء ، فظل على بؤسه وفاقة إلى أن مات .



## (١١) صاحب كمال الدين بن العديم :

وقد كتب له البهاء أحياناً يذكر فيها له أنه اختاره لتحقيق أمنية ، وأنه اصطفاه دون سواه . ذلك في مقطوعته التي يقول في أولها :  
 دعوتك لما أن بدت لي حاجة<sup>(١)</sup> وقلت : رئيس<sup>(٢)</sup> مثله من تفضلاً<sup>(٣)</sup>  
 هذا وهناك غير من ذكرنا — أشخاص اتصل بهم البهاء ومدحهم ، ولم أر  
 لهم ذكراً بين يدي من كتب التراجم<sup>(٤)</sup> ، ولعل أقدار هؤلاء لم تبلغ المنزلة التي  
 يذكروهم بها التاريخ .

(ح) صفات البهاء زهير<sup>(٣)</sup> :

تلقى كتب التاريخ والتراجم ضوءاً على أخلاق البهاء زهير ، كما أن شعره  
 مرآة تجلت فيها صفاته واضحة جليلة .  
 وأول ما يطالعنا من ديوان البهاء زهير صفة الوفاء ، وكذلك تحدثنا كتب  
 التاريخ عنه ، قالوا : لما طمع الصالح عماد الدين في الملك الصالح نجم الدين ،  
 وتفرق جيش نجم الدين عنه بقى الصالح في دون المائة من أمرائه وأجناده ، وتركه  
 من كان معه من أهل بيته وأقاربه ، وتركه أيضاً بدر الدين قاضي سنجار ،  
 وكان أخص أصحابه ، وصاروا كلهم إلى دمشق ، وقد أيسوا من أن يقوم بعدها  
 للصالح نجم الدين قائمة ، وثبت معه ثمانون من مماليكه ، وبعض الأمراء ،  
 وثبت معه أيضاً كاتبه بهاء الدين زهير<sup>(٤)</sup> .  
 فثبتات البهاء مع مخدميه وهو على تلك الحال من الضعف ، وتفرق الأجناد  
 والأقارب والأهل عنه — دليل على ما كان يتمتع به البهاء من صفة الوفاء ، وكثيراً

(١) « خزنة الأدب » : ٦٤ والديوان : ١٧٤ .

(٢) من هؤلاء مثلاً : ابن جلدك ، ونصير الدين أبو الفتح اللطى . . . وهو غير مجد الدين اللطى الذي سبق أن تحدثت عن صلته بالبهاء .

(٣) « السلوك » : ٢٨٨/١ .

(٤) « السلوك » : ٢٨٨/١ .

ما هتف في شعره بهذه الصفة .

فهو الذي يقل :

تعال فعاهدني على ما تريده فإني مليء\* بالوفاء زعيم  
ويحدثنا معاصره ابن خلكان عن أخلاقه فيقول :

« كنت أود لو اجتمعت به ، لما كنت أسمع عنه ، فلما وصل اجتمعت به  
ورأيت فوق ما سمعته عنه : من مكارم الأخلاق ، وكثرة الرياضة ، ودماثة  
السجايا ، وكان متمكناً من صاحبه "يقصد الملك الصالح نجم الدين أيوب" ،  
كبير القدر عنده . . . » ومع هذا كله فإنه كان لا يتوسط عنده إلا بالخير ،  
ونفع خلقاً كثيراً بحسن وساطته ، وجميل سفارته ، فلا جرم أن كان ممدوحاً يثنى  
عليه صحبه ، ومن اتصل بهم ، ويمدحونه بشعرهم ، مدحه ابن الحلوى بقصيدة  
طويلة كان من جملتها قوله :

تجيزها وتجز المادحين بها فقل لنا : أزهير أنت أم هرم  
وكتب إليه ابن مطروح يقول له :

أقول وقد تتابع منك برٌّ وجود ، ما برحت لكل خير  
ألا لا تذكروا هرمًا بجودٍ فما هرمٌ بأجودٍ من زهيرٍ !

\* \* \*

والوفاء الذي اتصف به البهاء زهير هو الذي جعله يحن إلى وطنه إذا ما فارقه ،  
فإذا كان بالصعيد حن إلى الحجاز :

أحن إلى عهد المحصب من منى وعيش به كانت ترفٌ ظلاله  
وإذا بعد عن الصعيد هتف به :

ويرتاح قلبي للصعيد وأهله وعيش مضي لي عندكم ومقام  
وإذا هم بالرحيل عن مصر نازعته نفسه :

أأرحل عن مصر وطيب نعيمها وأي مكان بعدها لي شائق ؟

فإن كان لا بد من الرحيل فالدعاء الدعاء يا أحباب ، وإلى اللقاء إلى اللقاء :

أحبابنا أرف الرحيل (م) فزودونا بالدعاء  
أحبابنا هل بعد هذا (م) اليوم يوم للقاء ؟ !  
وهو حيناً يجزى القادرين بالوفاء :

أنا الوفي لأحبابي ، وإن غدروا أنا المقيم على عهدي ، وإن رحلوا  
أنا المحب الذي ما الغدر من شيمى هيهات خلقى عنه لست أنتقل

وأحياناً تبلغ به ثورته على الخائنين فيرى خيانة من يحون :  
خل من خلاك يا قلب (م) ومن خانك خنـه  
لا تظن تصن بالله ودا لحنون لم يصنه  
وكما سامك سمه وكما دانك دنه  
مع أنه الذى يقول :

فلو خان طرفى ما حوته جفونه ولو خان قلبى ما حوته ضلوعى  
أو يقول :

مذ كنت لم تكن الخيانة (م) فى المحبة من خللقى  
وهو يرعى التقاليد ، ويكره الإثقال على الناس :

وللناس عادات وقد ألفوا بها لها سنن يرعونها وفروض  
فمن لم يعاشرهم على العرف بينهم فذاك ثقیل بينهم وبغیض  
ومن هنا كره الثقیل من الناس ، يلتقى فيه ملك الموت ، ويراه خليقاً بأن  
ينفر عنه أصحابه ، ويبلغ بغض البهائم للثقیل حدًّا لو ذكر معه اسمه على الماء  
ما ساغ شربه .

وثقیل كأنما ملك الموت قربه  
لو ذكر اسمه على الماء (م) ما ساغ شربه

\* \* \*

ويصف البهاء نفسه بالذكاء : فهو يفهم بالإشارة الدالة : واللمحة الحافظة :  
أشركى بوصف واحدٍ من صفاته      تكن مثل من سَمَّى : وكُنَى : ولَقَّبَا

\* \* \*

وهو رضى النفس فى حالى شبابه ومشيبه :  
سلام على عهد الشيبه والصبا      وأهلاً وسهلاً بالمشيب ومرحبا  
ويا راحلاً عنى رحلت مكرماً      ويا نازلاً عندى نزلت مُقَرَّباً

\* \* \*

وهو ذو همة - وإن كان فقيراً :  
واقنع بكسرة خبز وهمة      كسرويه  
وهو من أجل همته لا يرضى الذلة والمهانة :  
استغن عن زيد، وعن عمرو، وعن      فارق بلاداً أنت فيها تمهن

\* \* \*

ثم هو ذو مروءة ، ويرى المروءة وسيلة إلى رحابة العيش : وسعة الحياة :  
وما ضاقت الدنيا على ذى مروءة      ولا هو مسدود عليه رحابها  
فقد بشرتنى بالسعادة همتى      وجاء من العلياء نحوى كتابها

\* \* \*

وهو كريم :  
لى منزل إن زرتَه لم تلق إلا كرمك      وإن تسلّ عمن به لم تلق إلا خدامك  
وهو صادق يفعل ما يقول ، حسيبٌ يمنعه الحياء أن يخلف وعداً :  
إذا قلتُ قولاً كنتُ للقول فاعلاً      وكان حيائى كافى وضمينى  
وهو فى حاجات الناس ، يعينهم فى غاية من المروءة والنبل ، وينيلهم  
فوق الذى يرجون ، ويلقاهم فى بشاشة ولطف وترحيب :

ويا ربّ داعٍ قد دعانى لحاجة      فعلتُ له فوق الذى كان أملاً  
سبقتُ صداه باهتمامى لكل ما      أراد ، ولم أحوجه أن يتمهلاً



وأوسعته لما أتاني بشاشةً ولطفاً ، وترحيباً ، وخلقاً ، ومنزلاً  
 بسطت له وجهاً حياً ومنطقاً وفيّاً ، ومعروفاً هنيئاً مُعَجَّلاً  
 وراح يراني منعماً متفضلاً ورحت أراه المنعم المتفضلاً

ط - أسرة البهاء زهير :

في بعض نسخ الديوان المخطوطة بدار الكتب المصرية (رقم ٢٠٥١ أدب) وصف  
 لوالد البهاء زهير بأنه ( العارف قدس الله روحه ) ، وفي هذه العبارة ما يشير إلى أن  
 والد البهاء كان على صلة بالله ، وأنه يسلك في دنياه ما يسلكه العارفون المتصوفون  
 من أهل الهدى والصلاح . . .

وفي قصيدة استعطف بها أحد ممدوحيه يقول البهاء :

ولولا أمورٌ ليس يحسنُ ذكرُها لكنتُ عن الشكوى أصدً وأصدف  
 ولكن أطفالاً صغاراً ونسوةً ولا أحدٌ غيري بهم يتلطفُ  
 سرورى أن يبدو عليهم تنعمٌ وحزنى أن يبدو عليهم تقشف  
 وفي هذه الأبيات ما يشير إلى أنه يرعى أطفالاً ، ويعول نسوة ، وقد كان  
 يستكتب شعره ولدأ له يسمى صلاح الدين ، وذلك ما تكشف عنه عبارة وردت  
 في ديوانه تقول :

كتب « البهاء زهير » عند موته بالديار المصرية على يد ولده صلاح الدين  
 إلى محمد بن الحكم عماد الدين الدريني :

ما قلت أنت ، ولا سمعتُ أنا هذا حديثٌ لا يليقُ بنا  
 إن الكرام إذا صحبتهم سترُوا القبيح ، وأظهروا الحسن  
 هذا مبلغ العلم بأسرة البهاء : أبيه ، وأولاده ، وأهله ، وقد كان بهم باراً ،  
 وعليهم حريصاً . . .

### ى — وفاته :

فى السنة التى سقطت فيها بغداد على يد التتار سنة ست وخمسين وستمائة هجرية ، حدث وباء عظيم بالديار المصرية : ويجمع على البهاء الوباء والغلاء والفاقة وكبر السن فلا يقوى على المقاومة ، ويدركه القضاء المحتوم ، فيسلم أنفاسه الأخيرة قبل مغرب يوم الأحد رابع أيام شهر ذى القعدة ، ودفن من الغد فى القرافة الصغرى فى الجهة القبلىة بالقرب من قبة الإمام الشافعى ( رضى الله عنهم أجمعين ) . . . .

## الفصل الثالث

### جوانب البهاء زهير

#### ١ - البهاء زهير الكاتب

يذكر المؤرخون في ترجمة البهاء زهير أنه « من فضلاء عصره ، وأحسنهم نظاماً ، ونثراً ، وخطاً »<sup>(١)</sup> ، وحين تولّى الملك الصالح نجم الدين أيوب ملك مصر ، ولّى ديوان الإنشاء صاحب البهاء الدين زهيراً<sup>(٢)</sup> ، وإذن كان البهاء كاتباً إلى جانب شهرته بالشعر ، ولكن التاريخ الأدبي والسياسي معاً لم يحفظ لنا من آثار البهاء في النثر إلا كتابه الذي يرد فيه على لويس التاسع ملك فرنسا حين عزم على التوجه إلى أرض مصر وأخذها ، فسار السلطان الصالح نجم الدين أيوب من دمشق وهو في محفة ، ونزل بأشموم طناح في محرم سنة ٦٤٧ هـ ، وأعد العدة للدفاع عن دمياط ، وفي أواخر صفر وردت جيوش العدو ، وبعث ملكهم إلى السلطان بكتاب يدل فيه بقوته وعدد جيشه<sup>(٣)</sup> .

فلما قرئ الكتاب على السلطان وقد اشتد به المرض ، بكى واسترجع ، فكتب القاضي بهاء الدين زهير بن محمد الجواب<sup>(٤)</sup> :

وهو الأثر الأدبي الوحيد الذي حفظه التاريخ - على ما أعلم - من نثر البهاء زهير ، وهو على كل حال يعطينا صورة عما كان عليه نثر البهاء فهو يميل إلى الإيجاز والوضوح ، وتظهر فيه المراوحة بين الازدواج والسجع ،

(١) « وفيات الأعيان » : ٨١/٢٠ .

(٢) « صبح الأعشى » و « حسن المحاضرة » .

(٣) اطلبه في باب المنتخبات .

(٤) اطلبه في باب المنتخبات .

مع غلبة السجع عليه . والسجع فيه غير متساوى الفقرات . كما يبدو في هذا الكتاب الاقتباس من القرآن الكريم ، والاستشهاد بأقوال الحكماء ، وتوفيقه في هذا وذلك ، والكتاب بعد ذلك يلقي ضوءاً على ثقافة البهاء .

وقد كان البهاء مقيداً في رده على كتاب لويس التاسع بما أثار لويس من نقاط ، ومن هذا جاءت أفكار جوابه ضحلة محصورة فيما عرض لويس من ضروب التحذير . . . . فإن حذر لويس الصالح نجم الدين كثرة العساكر التي تملأ السهل والجبل ، وأنهم مرسلون بأسيا ف القضا . . . قال البهاء : « نحن أرباب السيوف . . . » وإن ذكر لويس ما كان عليه أهل الأندلس حينئذ من الطاعة والضعف . . . ذكره البهاء بما كان عليه المسلمون الأوائل من القوة والفتح والتنكيل بالأعداء . . .

وكأن البهاء كشف له عن الغيب حين حذر لويس عاقبة أمره الذي صار إليه . وذلك إذ خاطبه البهاء بقوله : « وبغيتك يصرعك ، وإلى البلاء يقلبك » . . . وقد كان . . . حيث أخذ لويس أسيراً سجيناً في دار ابن لقمان بالمنصورة . هذا ويذكر المؤرخون أنه لما فهم الفرنج موت السلطان الصالح نجم الدين أيوب — وقد أخفت شجرة الدر خبر موته أولاً — نزلوا على فارسكور فورد في يوم الجمعة إلى القاهرة من معسكر المصريين كتاب فيه حض الناس على الجهاد . . . أوله :

« انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

قال المقرئى : « وكان كتاباً بليغاً فيه مواعظ جمّة » <sup>(١)</sup> ويرجح ابن واصل أن هذا الكتاب كان من إنشاء بهاء الدين زهير <sup>(٢)</sup> .

ويبين المقرئى أثر هذا الخطاب حيث حصل عند قراءته من البكاء والنحيب وارتفاع الأصوات والضجيج ما لا يوصف .

(١) « السلوك » : ١/٣٤٦ .

(٢) « مفرج الكروب » ص ٣٦٤ ب .

ولا يستطيع الباحث أن يعتمد على هذا الأثر دليلاً على قوة الخطاب وبراعة البهاء فيه ، فربما كان تأثير الناس راجعاً إلى ما فيه من المواعظ كما يقول المقرئ ، أو إلى ما أثار عندهم من العواطف الدينية والوطنية . وتوقعهم استيلاء الفرنج على الديار ، وما يستتبع ذلك من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات .

ومهما يكن من أمر فإن شهرة البهاء شاعراً أعظم من شهرته كاتباً ، وحسبنا أنه كان في الشعر صاحب مذهب يعرف به ويدل عليه ، وهو ما أنا بسبيل إليه فيما يلي من حديث . . .

## ٢ - البهاء زهير الشاعر

### ١ - ديوانه :

يقرر ابن خلكان في وفياته أن البهاء قد أجازته رواية ديوانه الذي كان كثير الوجود بأيدي الناس في زمانه .

ويذكر المستشرق إدوارد هنري بالمر أن الذي جمع ديوان بهاء الدين زهير بعد وفاته هو شرف الدين ، وأن ذلك مذكور في نسخة حسنة موجودة بمكتبة أكسفورد ، وليس بعيد ذلك فقد كان شرف الدين هذا - وهو المعروف بابن الخلاوي الموصلي - ذا صلة بالبهاء زهير<sup>(١)</sup> .

وفي دار الكتب المصرية ثلاث نسخ خطية إحداها برقم ٢٠٥١ أدب والثانية برقم ٢٨ م تاريخ كتبت سنة ١٠٠٢ هـ ، والثالثة تحت رقم ٥٥٧ بخط حسين بن محمد فرغ من كتابتها في ليلة الاثنين الرابع والعشرين من شهر رمضان سنة ١٢٨٦ هـ .

أما طبعات الديوان فكثيرة ، ذكرها سركيس في معجمه ، ويبين أنه طبع

(١) « وفيات الأعيان » : ٨٣/٢ .



بمصر سنة ١٢٧٧ هـ ، سنة ١٢٨٧ هـ ، سنة ١٢٩٧ هـ ، وطبع بمطبعة شرف ، سنة ١٣٠٠ هـ ، ومطبعة عبد الرازق سنة ١٣٠٥ هـ ، والمطبعة الميمنية سنة ١٣١١ هـ ، ومطبعة الموسوعات سنة ١٣٢٢ هـ ، وطبع في بيروت ؛ طبعه صاحب المكتبة العمومية سليم إبراهيم صادر ، ولم يذكر لها تاريخ طبع .

كما طبع ديوان البهاء زهير بكمبرج سنة ١٨٧٦ م ، في مجلدين طبعه إدوارد هنرى بالمر مدرس اللغة العربية بمدرسة كمبرج ، ويحوى المجلد الأول منهما مقدمة تبين منزلة الشعر عند العرب ، وترجمة لبهاء زهير ، ويحوى المجلد الثانى ترجمة للديوان بالإنجليزية شعراً .

كذلك طبع الديوان بمصر بالمطبعة المنيرية ولم يذكر لها تاريخ طبع كذلك ، وقد صدرت هذه الطبعة بترجمة قصيرة لصاحب الديوان .

وديوان البهاء زهير فى حاجة بعد كل هذه الجهود إلى إخراج جديد يحقق فيه شعره ، ويقابل بين مختلف نسخه مخطوطة ، ومطبوعة ، وفاء لحق الشاعر العربى ، الذى كثيراً ما هتف فى شعره بالوفاء . . .

ب - طريقته :

( ١ ) لغته : انتقل البهاء زهير العربى من الحجاز إلى قوص بصعيد مصر ، ولا شك فى أن لغة الحجاز فى عربيتها كانت أسلم من اللغة فى قوص ، ثم فى القاهرة . . .

جاء البهاء إلى قوص فطرق سمعه لغة الحديث العادية الجارية : لغة لا هى بالعربية السليمة ، ولا هى بالغربية عن العربية ، بل تمت لها بصلة كبيرة . . . ومثل تلك اللغة - على الوافد العربى بخاصة - تثير تنبهاً منه إليها ، لما فيها من الغرابة ، وتغرى باستعمالها بما تحوى من القرابة . . .

ثم كان أن اندمج البهاء العربى القوصى الصعيدى فى الشعب المصرى ، وخالط طبقاته المختلفة : خالط دهماءه ، وعاشر خاصته ، فجاء شعره عربياً يمت إلى عروبتة ، واضحاً يفهمه أهل عصره من عامة الناس والأتراك . . .

واستطاع بذلك التوفيق في إنشاء أشعار يطرب لها العامة والخاصة على السواء . . .  
ورأى البهاء المصريين وما طبعوا عليه من خفة الروح ، وتلك صفة يشهد  
بها كل من زار مصر من الوافدين الذين عاشوا فيها مدة ، وخالطوا أهلها ،  
ولا تزال هذه الشهادة جارية على ألسنة هؤلاء الزائرين حتى هذا الزمان .  
كان ذلك كله بعض ما دفع البهاء زهيراً إلى أن تكون لغة الشعر عنده مصرية  
تعبر عن الحياة العادية في روحها ، وبساطتها ، ومرونتها ، عربية في جريها  
على قواعد النحو والإعراب . . . وجاءت أشعاره تحكى عذوبة النيل ، ورقة  
النسيم البليل ، في خيال هادئ ، ولفظ عذب قريب . ومعنى لطيف  
مألوف .

### حـ - البديع في شعره :

شغف البهاء بالبديع ، من جناس ، وطباق ، وتورية ، ومراعاة للنظير ،  
وتضمنين ، واقتباس ، وحسن تعليل ، وإلغاز إلى غير ذلك من فنون المحسنات ،  
ويصرح البهاء أنه ولوع بالبديع ، شديد التزوع إليه ، وأن مقياس جودة  
القصيدة بما فيها من زخرف القول :

وما ضاع شعري فيكم حين قلته      بلى وأبيكم ضاع فهو يضرع  
أحبّ البديع الحسن معنى وصورة      وشعري في ذاك البديع بديع  
ويقول :

وفضحتُ أزهارَ الريا ض بحسن أزهار البديع  
والجناس أكثر ألوان البديع دوراناً في شعر البهاء ، وقد بلغ من احتفاله به  
أن قال :

وإن بدأ النعمى تلاها بمثلها      فترداد حسناً كالقريض مُجَنَّساً  
وقال :

وأعجبني التجنيسُ بيني وبينها      فلما تبدى أشنباً رحتُ أشيباً

وهو من أجل التجنيس — كثيراً ما يورد الكلمات الآتية مقروناً بعضها إلى بعض : يزهو ويزهر ، يشكو ويشكر ، زاه وزاهر ، شاك وشاكر ، الليث والغيث ، غاباته وغاياته ، سفراته وشفراته ، الدقيق والرقيق ، أوفى وأوفر ، معذور ومعذول ، مأمول ومأمون ، مملوك ومملول .

ومن حسن التعليل قوله : ( وفيه أيضاً تورية ) .

كفى الله دمياط المكاره ، إنها لمن قبلة الإسلام في موضع النحر وما طاب ماء النيل إلا لأنه يحل محلّ الريق من ذلك الشجر

وقوله ( وفيه أيضاً اقتباس ) :

وما فاض ماء النيل إلا بمدمعي ( لقد مرج البحرين يلتقيان )

وقوله ( وقد جمع فيه بين الاكتفاء والمقابلة ) :

فلانة	من	تيهها	تغص	بها	مقتلى
وقد	زعمت	أنها	وليست	بتلك	التي
فلا	وجه	إن أقبلت	ولا	ردف	إن ولّت

ومن الجمع بين التورية والطباق قوله :

فتنت به حلواً مليحاً وإنه لأعجبُ شيء : كيف يحلو ويملح ؟

ومن التورية والاقتباس قوله :

أملى فيك دونه سيفٌ لحظ  
هذه قصتي ، وهذا حديثي  
ذاك مستقبلٌ ، وهذا ماضى  
ولك الأمر ، فاقض ما أنت قاضى

وقال ملغزاً في اسم مدينة « يافا » :

بعيشك خبرنى عن اسم مدينة  
على أنه حرفان حين تقوله  
يكون رباعياً إذا ما كتبه  
ومعناه حرفٌ واحدٌ إن قلبته

## د - معانيه الطريقة :

وللبهاء زهير معان طريقة يحيل بها المطروق من المعانى إلى نوع من الجدة والابتكار ، من ذلك قوله فى الوشاة :

إنى لأشكر لاوشاة يداً عندى يقل لمثلها الشكرُ  
قالوا فأغرونا بقولهم حتى تأكد بيننا الأمرُ

وقوله يخاطب رسول حبيبه :

ودعنى أفرّ من مقلتيك بنظرةٍ فعهدهما ممن أحبّ قريبُ  
وقوله :

قلبي لديك فكيف أذت على البعاد ، وكيف قلبي  
وقوله :

هم علموه فصارَ يهجره ربّ خذ الحق من مُعلّمه  
وقوله :

من مثل قلبي أو من مثل ساكنه الله يحفظ قلبي والذى فيه

## ه - وحدة قصائده :

وقصائد البهاء متلاحمة النسيج ، مترابطة الأجزاء ، يتصل لاحقها بسابقها ، يصوغ القصيدة أو المقطوعة فى موضوع ما ، فيتناول معانى هذا الموضوع ، معنى بعد آخر فى اتصال من غير تنقل أو استطراد يشعر بالانفصال ، ومن أجل ذلك جاءت قصائده قصة متصلة الأجزاء فى الموضوع الذى يتحدث فيه ،

وقد ختم بعض قصائده بقوله :

هذه قصتي ، وهذا حديثي ولك الأمر فاقض ما أنت قاضى

وقوله :

إليك صلاح الدين أنهيت قصتي ورأيك يا مولاي أعلى وأشرف

وفى ذلك ما يدل على اتجاهه فى وحدة القصيدة :  
وحسن تخلصه فى قصائد المديح من النسب إلى المدح يقرب مدائح من  
هذا الاتجاه .

### و - أوزانه :

استقرأت شعر البهاء فوجدت مدائح من بحر الطويل أو الكامل على حين  
نظم قصائده ومقطوعاته الأخرى من البحور الخفيفة فى الوزن غالباً ، ولعل  
جنوح البهاء نحو السهولة هو الذى جعله يميل إلى هذه الأوزان الخفيفة ، وقد  
جاء شعره صالحاً للغناء ، والتوقيع به على الصاجات بروحه الخفيفة ، وقافيته  
المركبة ، ونغمته المطربة ، وأوزانه الموسيقية ، وإنك ل ترى البهاء يسجل ذلك  
حين يقول :

كلامى غنى عن لحون تزينه له معبد من نفسه ونحارق  
تغنى به الندمان وهو فكاهة ويورده الصوفى وهو رقائق  
وقد نظم فى « الدوبيت <sup>(١)</sup> » كقوله فى مجزئه :

يا من لعبت به شمول ما أطف هذه الشمائل  
نشوان يهزه دلال كالغصن مع النسيم مائل  
لا يمكنه الكلام ، لكن قد حمل طرفه رسائل  
ما أطيب وقتنا ، وأهنا والعاذل غائب وغافل

### ز - أغراض شعره :

عالج البهاء زهير فنون الشعر ، فمدح ، وهجا ، وفخر ، ورثا ، وشكا ،  
وتغزل ، وعاتب ، ووصف فى شعره الحمر ، والطبيعة ، وليالى الأنس ، ومجالس  
اللهو والمجون . . .

( ١ ) الدوبيت : وزن من أوزان الشعر الفارسى ، نقل إلى الشعر العربى على يد الشعراء المولدين  
والمحدثين ووزنه فى كل شطرة :

\* فعلن متفاعلن فعوان فعلن \*



## ١ - الغزل :

وهو الفن الذى غلب فى شعر البهاء على غيره من الفنون ، وقد ملأ ديوانه به ،  
وأكثر من قوله فيه ؛ حتى اشتهر ذلك عنه وهو يرى أن التغزل داعية إلى الشعر :  
بعد الحبيب هجرت الشعر أجمعه فلا غزال يلهينى ولا غزلى  
والبهاء حين يتغزل بالمرأة ، ويتودد إليها يصف محاسنها وصفاً مادياً بعيد  
إلينا ذلك الوصف التقليدى القديم : فالمرأة غزال ، وقدها غصن بان ، ولحاظها  
سهام ، وعيونها نرجس ، وريقها خمر ، ووجهها بدر . . . إلخ .

والطابع الذى يمتاز به غزل البهاء تحدثه عن الأحوال التى تجرى بين  
العاشقين : من تشوق إلى اللقاء ، وسرور بالمواتاة ، وحيرة عند الهجران ، وغيره  
عنيفة على المحبوب ، وتودد للاسترضاء ، وبكاء عند الوداع :

جاءت تودّعنى ، والدمعُ يغلبها يوم الرحيل وحادى البين منصلت  
وقفت أبكى ، وراحت وهى باكية تسير عنى قليلاً ثم تلتفت  
وأرق عند الفراق :

يا من لعين أرقّت أوحشها من عشقت  
مذ فارقت أحبابها لها جفونٌ ما التقت

يعبر عن مختلف العواطف التى تجرى بين المحبين ، وأحوالهم من الهجر  
واللقاء ، واللين والصدود ، والمواتاة والتنويل ، ويصوغ ذلك كله بروح مصرية  
خالصة ، وطابع مصرى خفيف الروح ، كما قال :

لطفّت فى وصل الهوى كلماتى أين أهل القلوب والأشواق ؟  
شَنَّفَ السامعين درّ كلامى وتحلّت أجسادهم أطواقى

والمرأة عند البهاء زهير ستّه :

بروحى من أسميها بىستى فتنظرُ لى النحاةُ بعينٍ مقّتِ  
يرون بأننى قد قلتُ لحناً وكيف وإننى لزهيرُ وقى

ولكن عادةً ملكت جهاتي فلا لحنٌ إذا ما قلت (سُتِي)  
وهي روحه وحياته :

أنت روحي ، وقد تملكيت روحي وحياتي وقد سلبت حياتي  
وحبيبتة ، وسيدته ومولاته :

فيا مولاي ، قل لي أي ذنبٍ جنيتُ لعلني منه أتوبُ

\* \* \*

أمولاي ، إني في هواك معذبٌ وحتام أبقى في العذاب وأمكثُ ؟  
وهو عبدها :

تقصر الألسنُ عن وصفها لو بالغت واستغرقت جهدها  
إنَّ مملوكاً مَلَكَتْ مَهْجَتِي لا تدعني إلا (بيا عبدها)  
وهو يكرر هذا المعنى ، واستخراجه من ديوانه لا يحتاج إلى عناء .

\* \* \*

وله مذهب في الغرام جعله في الألفة ، والوفاء والعفة ، والغيرة ، والتجمل  
بمكارم الأخلاق ، وقد ذكره جملة واحدة في قصيدته التي يقول فيها :  
مذهبي في الغرام مذهب حق ولقد قمت فيه بالبينات  
وإن كان يذكره بالتفصيل في مواضع مختلفة من قصائده التي يتوحد فيها  
إلى النساء ، ويشيب بهن أو يتغزل :

وهو لا يذل إلا للحب :

تذللتي حتى رقّ لي قلبٌ حاسدي وعاد عذولي في الهوى وهو شافع  
فلا تنكروا مني خضوعاً عهدتم فما أنا في شيء سوى الحب خاضعٌ

\* \* \*

وفي شعر البهاء كثير من ذكر الحسود والعاذل والواشي ، والرقيب ، وهم الذين  
ذكرهم جماعة في قوله :

حبيبي فيك أعدائي ضروب حسود ، عاذل ، واش ، رقيب

وهو حيناً لا يبالي بالعواذل والرقباء كأن يقول :

أنا فيما أنا فيه وعذولي يتعتب  
أنا لا أصغى لما قال فيرضى : أو فيغضب

أو يقول :

أنا لا أبالي بالرقب يب ولا بمنظره القبيح  
غمز الحواجب بيننا أحلى من القول الصريح

وحيناً يهجو الرقيب ، ويصفه بأشنع الصفات :

ورقيب عدمته من رقيب أسود الوجه ، والقفا والصفات  
هو كالليل لقي الظلام وعندي هو كالصبح قاطع اللذات

أما الرسول الذي يصله بالحبيب فهو بمنزلة الحبيب من الإعزاز والتقدير :  
لقد أتاني من الحبيب حبيبٌ ورسولٌ الحبيب عندي حبيبٌ

فالرسول يجيء ببشرى اللقاء :

جاء الرسولُ ببشرى منها بميعاد الزياره

ويتخذة وسيلة إلى الاستعطاف :

فيا رسول ، تضرع في السؤال له عساك تعطفه نحوي وتثنيه

\* \* \*

وقد تردد البهاء بين البيض والسمر ، فهو يميل مرة إلى السمر ، وينفر عن  
البيض ؛ لأنه لا يشتهي لون المشيب :

لأن السمر في لون اللّمي والبيض في لون البهق

وأحياناً يغرم بالبيض ؛ لأن :

الحق أبيض أبلجٌ والحق أولى ما اتبع

كما وجد الجمال في معتدلة القوام تارة :

فما طالت ، وما قصرت ، ولكن بكملة يضيق بها الإزار  
قوام بين ذلك باعتدال فلا طول يعاب ، ولا اختصار

وفي الطويلة تارة أخرى :

وما عابها القد الطويل ، وإنه لأول حسن للمليحة بادي

والقصر مع الملاحاة عنده غير معيب :

وما ضرها ألا تكون لمويلة إذا كان فيها كل ما يطلب الإلف

وقد عبّ من اللهو ما شاء حتى تعشق عمياء :

قالوا : تعشقها عميا فقلت لهم : ما شأنها ذاك في عيني ولا قدحا  
بل زاد وجدى فيها أنها أبدأ لا تبصر الشيب في خدّى إذا وضحا

وقد هام بالحسن كما شاء له هواه فهو الذى يقول :

أذكر اليوم سُلَيْمَى وغداً أذكر زينب

ويقول :

وإني لمشغوف بكل مليحة ويعجبني الخصر المختصر والردف

ومدت له أسباب المحجون والعبث حتى تغزل بالمدكر :

طلع العذار عليه حارس قمر تضيء به الحنادس  
كالرمح مهزوز القوا م وكالقضيب اللدن مائس  
ويروح يقظان الجفو ن تخالّه كالظي ناعس

مع أنه قد عاب على من يحب الغلمان :

أيا معشر الأصحاب ، مالى أراكم على مذهبٍ والله غير حميد  
فهل أنتم من قوم لوط بقية فما منكم من فعله برشيد  
فإن لم تكونوا قوم لوط : بعينهم فما قوم لوطٍ منكم بعيد

## ٢ - المديح :

للبيهاء زهير زهاء ست وعشرين قصيدة في المديح : منها اثنتان في مدح الأمير علاء الدين جلدك ، وثلاث للأمير نصير الدين اللمطي ، وست لمجد الدين اللمطي ، وخمس للملك الناصر صلاح الدين يوسف ، وواحدة لكل من الملك الكامل ناصر الدين ، والملك المسعود أبي المظفر ، والمنصور السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، والملك العادل أبي بكر بن أيوب ، والصاحب صفي الدين بن شكر ، أما القصائد الباقيات فلم يعيّن في ديوانه الممدوحون فيها ، ويبدو أنهم في مرتبة دون هؤلاء من السلاطين والأمراء .

وقصيداته في مدح الأمير جلدك من أوائل شعره ، يعتمد في القصيدة الأولى إلى المدح نصّاً من غير تقديم بغزل أو تشبيب : إذ يقول :

لك الله من والٍ وليّ مقربٍ فكم لك من يوم أغرّ محجب

وهي قصيدة مشحونة على هذا النحو من الجناس مثل :

يقصّر عن أمثاله كلّ قيصر ويغلبُ عن أمثاله كلّ أغلب

وقد بلغ عدد أبيات هذه القصيدة اثني عشر بيتاً . . . وهي قصيدة في غاية السذاجة ، مدح البهاء زهير ابن جلدك بصفات هي بالنساء ألصق ، وهن بها أحق وأجدر :

هو الزهر الغض الذي في كمامه أو اللؤلؤ الرطب الذي لم يثقب

ولقد شبه الله الحور العين بأمثال اللؤلؤ المكنون ، فكيف يشبه ابن جلدك

— الموصوف بالشجاعة من قبل — باللؤلؤ ، واللؤلؤ الرطب ؟ ثم في قوله :

« لم يثقب » ما يوحي بأن ابن جلدك أشبه بالعدراء . ثم قوله بعد ذلك :

خليلي عوجا بي على الندب جلدك أقضي لبانات الفؤاد المعذب

ففي ماجد طابت مواهب كفه فلا تذكر لي بعده أم جندب



فما صلة جلدك بأَم جندب ؟ وكيف يعوج خليلاه بالندب جلدك مثل  
ما عاج امرؤ القيس وصاحباہ بأَم جندب ؟

أما القصيدة الأخرى في ( ابن جلدك ) هذا فقد بلغت العشرين بيتاً  
منها أحد عشر بيتاً في الغزل ، وتسع في المديح .

وقصائده في المديح ذات معان متكررة ، وصفات يخلعها على ابن جلدك ،  
كما يخلعها على اللمطي ، وكما يصف بها السلاطين والملوك ، فهم بحار في الجود  
وغيوث . وهم أسود في الشجاعة وليوث . وهم ذوو حلم وذكاء وعزيمة ومضاء ...  
يفتح قصائده بالغزل غالباً .

مهدت بالغزل الرقيق لمدحه وأردت قبل الفرض أن أتفلاً  
وما دام الغزل تنفلاً - كما يقول - فقد يعمد إلى المديح من غير تقديم ...  
وبعد أن يخلع على الممدوح صفات الشجاعة ، والكرم ، واليقظة ،  
والعزيمة ، والقدرة ... ينتقل إلى مدح آبائه وأجداده ، فالممدوح ماجد  
الأصلا ب ، كريم الأصول ، ولربما تعرض إلى مدح أنجاله ... ثم يختم بذكر  
شعره والفخر به ...

والبهاء طويل النفس في المدح بخاصة ، ومداثحه معرض للاقتباس الأدبي ،  
وميدان تظهر فيه ثقافته النحوية والشرعية والأدبية ، كما تتوارى نزعتة المصرية  
في قصائد المديح على وجه العموم ... فمديح البهاء لا يدل على فنه ، ولا على  
طبعه ، فهو يجرح إباءه ، ويحطم فنه ، ولا يتجلى فيه ما عرف به من روح  
خفيفة ، وطابع لطيف ...

والبهاء يستغل أسماء ممدوحيه في المعاني التي يتناولها حين يمدح ، فقصائده  
لم تحسن إلا لأنها حوت أحرفاً من اسم الممدوح :

وما حَسُنَتْ عِنْدِي وَحَقُّكَ إِذْ غَدَتِ هِيَ التَّيْبُ مَسْبُوكًا أَوْ الدَّرُّ مَنَتِي  
ولا أن جَرَّتْ مَجْرَى النِّسِيمِ لَطَافَةً ولا أن حَكِي زَهْرَ الرِّيَاضِ المَعْتَقَا  
ولكنها حازت من اسمك أحرفاً كَسَتْهَا جَمَالًا فِي النِّفُوسِ وَرَوْنَقَا

ومن هنا نراه يقول في الملك الكامل :

وأقسم لولا هممةٌ كاملية      لخافت رجالٌ بالمقام وبالبحر  
فقل لرسول الله إن سميهِ      حمى بيضةً الإسلام من نوب الدهر

وفي الصالح نجم الدين أيوب يقول :

فإليك يا نجمَ السماء      فإني قد لاح نجمُ الدين لي يتألق  
الصالحُ الملك الذي لزمانه      حُسْنٌ يتيه به الزمانُ ورونق

وفي العادل يقول :

إلى العادل المأمول للدهر إن سطا      به يتجلى ظلمُهُ وظلامه

وهو في مدائحهِ يحب أن يستوثق من صلة ممدوحه الدائمة على الرغم من أنه  
ذكر بأن أشعاره لم تكن للاستجداء :

وما قلت أشعاري لأبغى بها الندى      ولكنني في حلبة الفضل سابق  
أأطلبُ خيرَ الله من عند غيره      وأسترزقُ الأقوامَ واللهُ رازق ؟

يقرر هذا على حين يقول في مجد الدين اللمطي :

وإن بدأ النعمى تلاها بمثلها      فترداد حسناً كالقريض مجنسا

ويقول :

يا من إذا بدأ الجميل أعاده      فجميـله يجميله موصول

فإذا كان مع الصالح نجم الدين أيوب اطمأن إلى منزله عنده فيقول :  
وحلت عندك إذ حلت بمعقل      يلقي لديه ماردٌ والأبلق  
وتيقنُ الأقوام أنى بعدها      أبداً إلى رُتب العلا لا أسبق  
فرزقتُ ما لم ، يرزقوا ونطقت ما      لم ينطقوا ، ولحقتُ ما لم يلحقوا

وبعد : فهل بلغ الطموح عند البهاء زهير مبلغاً يطلب فيه هو الآخر

ولاية حين يقول في الناصر :

وبعض عطاياه المدائن والقُرى فمن ذا الذى فى ذلك البحر يسبح ؟  
وقد صدر فى قصيدته التى مدح بها الملك الكامل - عن روح دينية ،  
واعتراز بموقف المسلمين فى معركة دمياط ، فجاءت هذه القصيدة معبرة عن  
شعوره نحو هذا الانتصار . . . من غير أن يخلطها بما عهد عنه فى قصائد  
المديح من استيثاق من الصلة أو العطاء . . .

ويدعى فى مدائحه أنه يقصر مدحه على الممدوح لا يتعداه :

يقول فى مدح الأمير نصير الدين اللمطى :

إلى اليوم لم تكشف لغيرك صفحة      فها هى مسدولٌ عليك ستارها  
ويقول فى مجد الدين اللمطى :

وربّ قواف قد طويتُ برودها      فلم أرضَ أن تغدو لغيرك ملبسا  
ويقول فى الملك الصالح أيوب :

يا من رفضتُ الناس حين لقيته      حتى ظننت بأنهم لم يخلقوا  
قيدت فى مصر إليك ركائبى      غيرى يغرب تارة ، ويشرق

\* \* \*

ونهج مدائحه - غالباً - على النهج الذى ذكره فى قوله :

نسيبٌ كما رقّ النسيم من الصبا      وغازله زهرُ الرياض المفتح ؟  
ومدحٌ يكون الدهرُ بعض رواته      فيمسى ويضحى ، وهويسرى ويسرح  
وكما يقول فى الملك الناصر :

غزلٌ ومدحٌ بتُّ أغرق فيهما      كالخمر مازجه الزلال السلسلا  
ولما وقع بينه وبين مجد الدين اللمطى جفوة ، جعل مدحه مزيجاً بالغزل  
والشكوى والعتاب إذ يقول :

نسيبٌ كما يهوى العفافُ متزهً      ومدحٌ كما تهوى المعالى معظم  
وشكوى كما رقّ النسيم من الصبا      وعتبٌ كما انحل الجمان المنظم

\* \* \*

وغالباً ما يختم مدائحہ بالفخر بشعره والثناء عليه ، قال في ختام مدحة  
ابن جلدك :

أنتك القوافي وهي تحسب روضةً      لما ضمنتہ وهو قولٌ مزخرف  
ولو قصدت بالذم شانيلك لا غتدي      وحاشاك منه قلبه يتنظف  
تقلدُ عاراً ، وهي درٌ منظم      وتلبس حزنًا ، وهي بُردٌ مفوّفٌ  
وتصلي جحيماً ، وهي في الحسن جنة      وتسقي دهاقاً ، وهي صهباء قرقف

\* \* \*

ويعرض في مدائحہ بالشعراء السابقين ، ويدعى لنفسه الفوق عليهم ،  
يقرر ذلك مع زهير بن أبي سلمى حين يقول مادحاً الأمير نصير الدين  
اللمطي :

هذا زهيرُك لا زهيرُ مزينة      وافاك لا هرمًا على عيالاته  
ويقرره مع الفرزدق وجريز ؛ إذ يقول عن قوافيه :

إذا ذكرت في الحى أصبح آيساً      فرزدقها من وصلِها وجريرها  
ثم يذكر طرفة بن العبد والمتلمس فيقول :

سيرضيك منها ما يزيدُ على الرضا      ويستبعدُ ابنَ العبد والمتلمسا  
كما يذكر النابغة والحطيئة حين يقول :

مولاي قد أهديتها لك كاعباً      عذراء تبدو عُدرةً وتنصلا  
لو أنها ممن تقدم عصره      صفت زياداً أن يقول وجرولاً

ثم يدعى لنفسه إمارة الشعر ، إذ يقول :  
وللناس أشعارٌ تقال كثيرةٌ      ولكن شعري في الأمير أميرها

\* \* \*

## ٣ - الهجاء :

كان البهاء زهير مرهف الإحساس ، لطيف الروح ، دقيق المشاعر ، يأنس  
للمعاشرة الكريمة ، وينفر من التصرف الشاذ ، ويأبى مجانبة الذوق ، ويضيق  
صدره حرجاً بالخروج عن أصول اللياقة .

ومن أجل ذلك هجا البارد الثقيل من الناس ، وكره أن يلزمه - على الرغم  
منه - جاهل مختال ، أو منافق كذوب ، أو جليس أحمق ، أو محدث ثرثار ،  
أو زائر غبي ، أو رقيب عدول ، أو مدّع للعلم وهو جهول ، أو صاحب خژون ،  
أو مغتاب حقوق ، أو مؤمل يخيب الراجين ، أو متحفظ في مجالس اللاهين ،  
ورجاً ألا تكون له صلة بأحد من هؤلاء - ولذعهم بالتهكم والهجاء :

أرى قوماً بليت بهم نصيبي منهم نصبي  
فمنهم من ينافق لي فيحلف لي ويكذب بي

وأكثر ما أتعبه ثقل الثقلاء فيقول :

وثقيل كأنما ملك الموت قر به  
ليس في الناس كلهم من تراه يحبه  
لو ذكرت اسمه على الماء ما ساغ شربه  
أويقول :

وثقيل ما برحنا نتمنى البعد عنه  
غاب عنا ففرحنا جاءنا أثقل منه

وقد تكرر هجاؤه للثقلاء في مواضع كثيرة من ديوانه . . . وجاءت أهاجيه  
في الأعم الأغلب مقطوعات صغيرة ، خفيفة الروح ، فطرية النزعة ،  
خالصة التهكم ، لاذعة السخرية ، نافذة السهام . . .

## ٤ - الفخر :

وفخر البهاء أكثر ما يكون بشعره ، فلا قائل غيره :

بعمرك ما في القوم غيري قائل وهذا مجال للجياذ وميدان



وشعره يستميل المسامع بفنونه ، ويستهوئ المخدرات : ويتغنى به الندامى ،  
ويستشهد به المتصوفون : وتقضى به الحاجات ، ويستعطف به العشاق ، فيه  
راحة للروح ، ومسلاة للقلوب : ومصرف للهموم .

كذلك ! يفخر البهاء بحبه ، وأنه دمث الخليقة ، رقيق الحاشية . وفي  
لا يخون :

أنا في الحب أطف الناس معنى دمثُ الخلق ، ذو حواش رفاق  
أعشق الحسن والملاحة والظر ف ، وأهوى محاسن الأخلاق  
لم أحن في الوداد قط حبيباً فينادى على في الأسواق  
وهكذا كان فخر البهاء . فخر بمذهبه في الأدب والحب ، فكان له في  
هذين غنى أى غنى عن الفخر بالأحساب والأنساب .

#### ٥ - الوصف :

أحب البهاء مصر ، واهتزت شاعريته لطبيعتها . وهتف بها واصفاً ،  
وتحدث في وصفه عن النيل ، وأمواجه ، والمراكب فيه : والجو ، والأزاهير ،  
والأثمار ، والدوحات ، والطيور ، والمروج ، والنواعير ، وتراب مصر وحصائها ،  
وآصالها ، وأكثر ما يتحدث عن ذلك وهو مغرب ، فهو حينئذ يحن إلى مصر  
ويذكر مجالها وأيامه ولياليه فيها .

وكان للبهاء في صباه مجالس له اتخذها بالجزيرة والجزيرة ، ودعا إليها  
خلصاءه وخلطاءه ، فوصف هذه المجالس ، وما يحيط بها من طبيعة ضاحكة ،  
وما يقوم فيها من طعام وشراب ، وتفنن في وصف الحمر ، ولطفها ، وتعنتها  
وإشراقها ، ورقتها ، وسقاتها ، وفعلها في الشاربين ، والغناء والمغنين ، ولم يفته  
— بعد ذلك — أن يتحدث عن الطهارة ونظافتهم ، والقذور التي تهدر على الحمر  
وتفور . . . .

وتحدث البهاء عن ليالى الأنس والوصال ، ووصف سرعة مرورها ، وحلاوة

المسامرة فيها ، أما الليالى التى يفتقد فيها المؤنس المسامر فهى بطويلة ذات قسوة وإملال . . .

وقد يخلط البهاء وصفه بالدعابة ، ومن ذلك مقطوعة له فى وصف بغلة عجفاء ، وأخرى فى وصف فرس هزيلة ، كما قد يخلط الوصف بالتهكم والسخرية والهجاء ، وذلك فى قصيدته فى وصف رجل ذى لحية كبيرة ، والتى يقول فى أولها :

وأحمق ذى لحية كبيرة منتشره

٦ - تشوقه وحنينه :

فارق البهاء زهير الحجاز فاشتاق له ، وحن إليه ، ثم أحب مصر ونسب إليها ، وامتزجت بخاطره ، وجرت فى عروقه فكان مصرياً خالص المصرية ، وكما تجلت مصريته هذه فى ألفاظه وتعايره ، تجلت فى أحاسيسه وهواجسه ضميره ، بل قد تكون هذه داعية إلى تلك . . .

كانت نفس البهاء تنازعه عند الرحيل وتغالبه ، أيرحل عن مصر ، أيعادر طيب نعيمها ؟ أترك مجلس الحسن ، وقرة العين ، وبهجة الفؤاد ؟ أأرحل عن مصر وطيب نعيمها وأى مكان بعدها لى شائق ؟ وهو دائم الحنين إليها مغترباً عنها ، لا يرى بلداً من البلاد يفوقها فى رفاهة العيش ، ومظاهر الجمال :

ولم أرَ مصرأً مثلَ مصرٍ تروقى ولا مثلَ ما فيها من العيش والخفض ويرسل وهو فى غربته لحنأً حزينأً ، ويبحث بالقريض إلى مصر شوقأً وحنينأً :

أيام مصرٍ ليها فُديتُ بأيامى البواقى ويدعو لها بالسقيا ، ويذكر ترابها وحصباءها ، ويتشوق إلى أهلها فى قصيدته التى أولها :

سقى وادياً بين العريش وبرقةٍ من الغيث هطالُ الشآبيب هتانُ

## ٧ - الرثاء :

ولشاعرنا في الرثاء سبع مقطوعات ، عدتها ثمانية وثمانون بيتاً ، وهي في رثاء بعض أصدقائه دون الملوك ، وهنا يعرض سؤال : أين الملوك الذين عاشهم جميعاً ، ومدحهم جميعاً ، وشهد موتهم واحداً بعد الآخر ؟ إن كان الملك الصالح قد غضب عليه وصرفه من خدمته في رياسة ديوان الإنشاء فأين رثاء الكامل ، والعاذل ، والناصر ؟ وأين اللمطيون جميعاً ؟ لقد كان البهاء زهير طويل العمر ، عاش خمساً وسبعين سنة ، وعاصر الدولة الأيوبية في مختلف أدوارها ، لم يرث إلا صديقاً له هو فتح الدين عثمان بن حسام الدين والى الإسكندرية ، وكان قد توفي بآمد سنة ٦٣١ هـ ، ثم رثا أخاً لابن مطروح ، ثم رثا شخصاً يسمى علياً لم يذكر في الديوان صلته به ، ثم المقطوعات الباقية لا يعرف فيمن قيلت ، فهل شغل عن اللمطين بالملوك ، وهل شغل عن الملوك بالملك الصالح أيوب ؟ وهل شغله عن الصالح طرده من خدمته ؟ ثم أين رثاء ابن مطروح الذي مات قبل البهاء بسبع سنين ، وكانا يتعاطفان ويتوادان حتى إن البهاء قال - وقد علم بمرضه :

لقد ضاعفت يا روجي لروحي الهم والنصبا

وإذا كان هذا يقال في المرض ، فكيف لا يرثيه ؟ !

ويزداد الموقف غموضاً إذا علمنا أن ابن مطروح طلب منه أن يندبه ويبيكه في قوله :

إذا أنا مت فاندُبني فربّ أخ أخاً ندباً  
وقل مات الغريب فأين من يبكي على الغربا

فهل الديوان منقوص ؟ وهل انطواء البهاء في آخر أيامه على نفسه في عزله

وسوء حاله ورقته صرفه عن قول الشعر حتى في واجب العزاء لأوفى الأوفياء ؟ !  
وأين أوائل أيامه ؟

وربما كان لطبيعة البهاء ونظراته الفرحة إلى الحياة ، ومعرفته بها ، وأنه لا يجدى  
مع الموت رثاء ، ولا يرد الميت بكاء ، ربما كان شيء من ذلك يعلل لنا هذا  
الاتجاه عند البهاء .

ورثاء البهاء فيه الرقة ، وفيه الحسرة والأسى ، كما قال :  
أبكيتك بالشعر الذي قد رق حتى صار دمعاً  
ولكنه لا يبكيك ولا يسليك ، تتكرر معانيه في رثائه . ويدعو للقبر بالسقيا  
وقد يرسل أحياناً الموعظة فيها التصبر ، وفيها العزاء :  
وما الناسُ إلا راحلٌ وابنٌ راحلٌ إلى العالم الباقي من العالم الفاني  
وإلا فأين الناسُ من عهد آدم ومن عهد نوح ثم منه إلى الآن ؟  
وأفضل منه قول أبي نواس :  
ألا كل حيٍّ هالكٌ وابنٌ هالكٌ وذو نسبٍ في الهالكين عريق

\* \* \*

وهناك معنى يكرره البهاء ، وهو استنكار بقاءه بعد وفاة من يعزيه ، وأنه  
يرى نفسه بالغدر حيناً ، ويعتذر حيناً بأن الموت ليس فيه وفاء ، وهيئات أن يموت  
إنسان لإنسان !! :  
لقد نخته في الود أن عشت بعده وما كنتُ في ودِّ الصديق بنحو أن  
ويقول :

أتمضي أنتَ منفرداً وأبقى ؟ لقد غدرتك نفسك يا وفي  
أو يقول :

وما لي أدعى أني وفي ولست مشاركاً لك في بلاكاً  
تموتُ وما أموتُ عليك حزناً ؟ ! وحقُّ هواك خنتك في هواك

ثم يقول في هذا المعنى . ويعتذر من عدم الوفاء :  
وما كنتُ عنه أملكُ الصبرَ ساعةً      فما صارَ أنساني عليه وأقصاني  
هو الموتُ ما فيه وفاءٌ لصاحب      وهياتَ إنسانٌ يموتُ لإنسان  
إلى غير ذلك من المعاني التي سبقه بها الشعراء وليس فيها من جديد :  
فهو يذكر التصبر ، والنهي عن الجزع ، وأنهم دفنوا يوم وفاته المعروف ، وأن  
خيال الميت مائل أمامه لا يفارقه ، وأنه طاب حياً وميتاً ، وأنه ماتت بموته  
المسرات :

فبعدك ليس يُفَرِّحُنِي بشيرٌ      وبعدك ليس يحزنني نعيٌ  
تكدرَ فيك صافي العيش لما      عدمتك أيها الخلل الوفي

\* \* \*

وهو يكاد يشبه في رثائه النادبات النائحات في المآتم :  
« واقلة أنصاري ! يا منتهى سؤلى ! يا مشتكى حزنى ! يا حافظ أسرارى ! »

\* \* \*

وإذا كان الأول يقول :  
أما القبور فإنهن أوانس من بعد موتك والديار قبور  
فإن البهاء يقول :  
الدارُ من بعد النوى قد أصبحتُ في وحشة يا مؤنس الدار  
وهذا مثل من أمثلة سبق البهاء في معناها الشعراء السابقون .  
أما الذي انفرد به في هذا الباب فهو ذلك « الوفاء » الذي نلمحه في رثائه ،  
وقد قدمت أبياتاً هي مظهر ذلك الوفاء .

٨ - متفرقات :

في المشيب :

وللبهاء زهير بضع قصائد في المشيب ، يتحسر فيها على شبابه الراحل ،  
وتترأى أمامه أطيايف الماضي بما فيه من جمال الحسان ، وكأس المدام ،



فيهتز لها ، ويهيم بها ، ويحن إليها ، يدفعه إلى ذلك كله قلب لا تزال فيه بقية  
من شمائل المرح الطروب ، ولكنه يكتم صبايته ، وينيب إلى ربه ، ويلتمس  
منه العفو والغفران . . .

### في النصيح والإرشاد :

وللبهاء زهير مقطوعات وأبيات في النصيح والإرشاد : أوحى بها إليه تجاربه  
الكثيرة ، وخبراته المتعددة في عمره المديد ، واختلاطه بطبقات الناس ، من  
العامة والملوك ، والمرؤوسين والرؤساء ، وتعامله مع هؤلاء وهؤلاء ، وهو أحياناً  
يمزج نصحه بالحكمة يشتقها من مقتضى الحال ، ويبرهن على ما يسوقه من نصيح  
بما يناسب المقام ، ومن أمثلة شعره في هذا الباب قوله :

توقّ الأذى من كل نذل وساقط فكم من تأذى بالأراذل سيد  
ألم تر أن الليث تؤذيه بقّة ويأخذ من حد المهند مبرد

### التصوف :

وكان في البهاء زهير نزعة صوفية تتمثل في الابتهاال والرضا وطمأنينة النفس ،  
والتسليم لما تأتي به الأقدار ، وله مقطوعات استعمل فيها ألفاظ الصوفية  
ومصطلحاتهم : كالخطرات ، والفتوح ، وصاحب الوقت ، والإخلاص لله ،  
والصحبة فيه .

### ( ح ) شعره صورة لحياته :

سجل البهاء زهير في شعره نبضات قلبه ، وخلجات عواطفه ، كما صور  
حياته تصويراً واضحاً في يسر : وسهولة ، ولطف ، تحدث في شعره عن أيام  
صباه بالحجاز ، وظل به لهجاً يذكر أيامه في حنين واضح ، وشوق ملح ، وقد  
أفرد في ديوانه قصيدتين حجازيتين ، إحداهما مطلعها :

أحنّ إلى عهد المحصب من منى وعيش به كانت ترف ظلاله

والأخرى مطلعها :

سقى الله أرضاً لست أنسى عهودها وياطول شوقى نحوها وحنينى  
ولم يكن مظهر الحجازية عند البهاء هاتين القصيدتين فقط . كيف وهو  
الذى يقول :

مقيم بقلبي - حيث كنتُ - حديثه وباد لعيني حيث سرتُ خياله  
وإذن ليهتف بالحجاز ، ومجالى الحجاز فى خلال قصائده . وهكذا فعل ،  
فاشتق كثيراً من استعاراته ، وتشبيهاته ، وبديعياته من ألفاظ حجازية كأن  
يقول :

وياحرم الحسن الذى هو آمن وألبابنا من حوله تتخطف  
أو يقول :

يا منسك المعروف أحرم منطقى زمناً ، وقد لبّاك من ميقاته  
حتى ذكر الحجاز فى الغزل ، وذلك إذ يقول :

يا خصره ، يا ردفه من لى بنجد أو تهامه ؟  
وفى المدح حيث يقول :

وأقسم لولا همة كاملية لخافتُ رجالاً بالمقام وبالبحر  
وهكذا تراءى مجالى الحجاز أمام البهاء ، فيهتف بها مادحاً ، أو متغزلاً  
أو مشوقاً مؤملاً . . . . .

\* \* \*

كذلك سجل البهاء فى شعره الفترة التى أقامها فى الصعيد متطلعاً إلى غايات  
المجد ، وخدمة الملوك ، يقول :

ويرتاحُ قلبي للصعيد وأهله وعيش مضى لى عندكم ومقام  
وأهوى ورود النيل من أجل أنه يمرّ على قوم لدّى كرام

ولم يكن حينئذ بالرجل ذى المكانة حتى يؤبه به . . . كان يرد عن الأبواب  
بمخشونة الخدم والحجاب :

فقالَ ألقى دونَ بابك جفوةً      لغيرك تعزى لا إليك، وتنبس  
أردَ بردَ الباب إن جئت زائراً      فيا ليت شعري ! أين أهلٌ ومرحب؟  
ويستمر البهاء فى اتصالاته بالحكام حتى يتحقق أمله المرجو ، فيقول  
مخاطباً الملك الصالح :

وقد قرّبَ الله المسافة بيننا      فها أنا يحوينى وإياه إيوان  
وفى هذه المرحلة يبتسم الزمان للبهاء، وتقبل الدنيا ببهرجها وزينتها عليه ،  
فيكون صاحب عطاء كما يكون صاحب لهُو وغناء، وطرب ونساء ، فشرب  
وطرب ، وكانت له مجالس دعا إليها .

ولإنك لتجد فى شعر البهاء صورة صادقة لعواطفه وأحاسيسه غريباً عن مصر ،  
ملتحقاً بخدمة الملك الصالح ، وراحلاً متنقلاً بين نابلس ، وحلب ، ودارا ، وآمد ،  
وذكر وهو فى البلاد الشرقية شكواه من ارتحاله الذى لا يفتر :

إن أمرى لعجيبٌ      لا يرى أعجب منه  
كلّ أرض لى فيها      غائبٌ أسألُ عنه  
أينَ من يشكو من الب      ين كما أشكوه منه؟

ثم يشاء الله أن تهدأ نفس البهاء المشوقة ، فتقبل الأيام على الملك الصالح ،  
ويعود إلى مصر مملكاً على عرشها ، ويعلو نجم البهاء ، ويؤمّر على ديوان  
الإنشاء ، وفى ذلك يقول :

وسفرت للملك العظيم ( م ) الشأن والقدر الرفيع

ويكون لذوى الحاجات نعم المعين ، ثم تدور الدائرة عليه ، فيعود إلى عزلته  
وقد كبرت سنه ، وتجتمع عليه من أحداث الزمن وتقدم السن ما يجعله يعود إلى إرسال  
الشكوى والأنين باللحن الحزين ، وتجبره الأيام على بيع كتبه ونفائسه ، وما أشد

وقع ذلك على البهاء !! أليس هو الذى قال :  
أقبحُ من وعد بلا وفاء ومن زوال النعمة الحسنة ؟  
ويلحقه الإعسار فيقول :

وصاحب أصبح لي لأئماً لما رأى حالة إفلاسى  
قلت له : إني امرؤ لم أزل أفنى على الأكياس أكياسى  
ما هذه أول ما مرّ بي كم مثلها مرّ على راسى  
وفى السبعين يقول :

نزل المشيب وإنه في مفرقٍ لأعزّ نازل  
بالله قل لي يا فلان (م) ولى أقول ولى أسائل  
أتريد في السبعين ما قد كنت في العشرين فاعل ؟!

\* \* \*

ثم تطوى هذه الصفحة بما فيها من جد ومجون ، ولهو ، وفتون ، وكان آخر  
ما خط فيها على ما هو منقول :

ما قلت أنت ، ولا سمعت أنا هذا حديث لا يليق بنا  
إن الكرام إذا صحبتهم ستروا القبيح ، وأظهروا الحسن

( ط ) شعره صورة لعصره :

ويلقى شعر البهاء ضوءاً على الحياة في عصره : فهو يشير إلى كثير من  
العادات الدينية ، وأحوال المجتمع ، كالندور للأولياء في أضرحتهم بالمساجد ،  
وكالحديث عن طائفة الرفاعية وما عرف عنهم من خوض النيران ، وتسبيح  
المؤذنين في الأسحار ، وعن مظاهر الاحتفال في عهده من دق الطبول ، ورفع  
الرايات ، وعن حجاب الرؤساء وخشونتهم ، وعن اللعب بالنرد ، والخط على  
الرمال والتنجيم لمعرفة ما يكنه الغيب ، وعن المرائين الذين يظهرون الزهد وهم على  
الدنيا متكالبون ، وعن المرعوسين الذين يبذلون جهودهم ورؤسائهم عنهم غافلون  
إلى غير ذلك من شئون المجتمع المصرى في ذلك الوقت ، ومن أمثلة ذلك قوله :

يا أيها الباذلُ مجهوده في خدمة ، أفّ لها خدومه !  
إلى متى في تعبٍ ضائع بدون هذا تأكل اللقمة !  
تشقى ، ومن تشقى له غافل كأنك الراقصُ في الظلمة

### ٣ - منزلته

البهاء مذكور في التاريخ بدمائة خلقه ، كما هو مشهور بعدوبة لفظه ، وسهولة أسلوبه ، ووضوح معناه ، ذكره ابن خلكان فقال عنه إنه : « من فضلاء عصره ، وأحسنهم نظماً ونثراً وخطاً ، ومن أكبرهم مروءة » ، وقال في موضع آخر : « وكنت يومئذ<sup>(١)</sup> مقيماً بالقاهرة ، وأود لو اجتمعت به لما كنت أسمع عنه ، فلما وصل اجتمعت به ، ورأيت فوق ما سمعت عنه من مكارم الأخلاق ، وكثرة الرياضة ، ودمائة السجايا . . . »

ووصف ابن خلكان شعر البهاء فقال : « وشعره كله لطيف ، وهو كما ينول : "السهل الممتنع" . وإن كان ذلك الحكم لم يرض اليافعي اليمنى صاحب "مرآة الجنان وعبرة اليقظان" فقال في شعر البهاء : لم أكتب شيئاً منه ، ولا أعجبني ، ولا قوى عزمي الضعيف » . وليس عجيباً أن تتفاوت الآراء في المذهب الشعري للبهاء ، وإن كان الأعم الأغلب من النقاد يكادون يشنون على مذهبه في الشعر من القدامى والمحدثين على السواء :

يقول هيار في كتابه الأدب العربي :

« إن شعر البهاء يجعلنا ندرك ما بلغه لسان العرب من المرونة والاستعداد للتعبير عن ألوف من دقائق العواطف » .

ويقول بلمر : إن شعر البهاء زهير يشابه الشعر الأوربي ، وأكثر أفكاره تحاذي أفكار الشعراء الإنجليز في القرن السابع عشر .

(١) أواخر ذي القعدة سنة سبع وثلاثين وسبعمائة .



ويقول المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق :  
 « لست أعرف شاعراً تفخت مصر فيه من روحها ما تفخت في البهاء زهير ،  
 فهو مصري في عواطفه ، وفي ذوقه ، وفي لهجته إلى الغاية القصوى » .

#### ٤ - تأثيره

تأثر البهاء زهير بألوان الثقافة الشائعة في عصره ، وقد بيّنتُ قبْلُ تأثيره  
 بالمتنبى وأبى نواس ، وقد صاغ البهاء بعض ما قال في الغزل في أسلوب قصصى ،  
 وأراه متأثراً في ذلك بعمر بن أبي ربيعة ، كما تأثر به في تغزله بنفسه أحياناً ، وذلك  
 حين يقول :

وقائلة لما أردت وداعها      حبيبي ! أحقاً أنت بالبين فاجعي ؟  
 فيا رب لا يصدق حديث سمعته      لقد راع قلبي ما جرى في مسامعي  
 وقامت وراء الستر تبكي حزينةً      وقد نعبته بيننا بالأصابع

ويذكر ابن حجة الحموى في خزانة الأدب ما يدل على تأثير البهاء في  
 غرامياته بالحاجري والتلعفري حيث نصح الشيخ نور الدين علي بن سعيد الأندلسي  
 بمطالعة ديوانهما<sup>(١)</sup> .

وفكاهات البهاء ودعاباته وروحه المصرية تذكرنا بفكاهات الشعراء في  
 العصر الفاطمي الذي مثلوا بشعرهم الروح المصرية ، ومزاج المصريين ، وميلهم  
 إلى الدعابة والتنكيت<sup>(٢)</sup> .

كذلك يعد ولوع البهاء بألوان البديع امتداداً لولوع هؤلاء الشعراء  
 الفاطميين<sup>(٣)</sup> .

( ١ ) « خزانة الأدب » لابن حجة الحموى : ٨ .

( ٢ ) من أمثلة الدعابة في الشعر الفاطمي ما قاله الخليل بن الحباب (ت ٥٦١هـ) يشكو طبيباً :

وأصل بليتي من قد غزاني      من السقم الملح بعسكريين  
 طبيب طبه كغراب بين      يفرق بين عافيتي وبيتي  
 أتى الحمى وقد شاخت وباحت      فرد لها الشباب بنسختين  
 ودبرها بتدبير لطيف      حكاه عن ستان أو حنين  
 وكانت نوبة في كل يوم      فصيرها بحلق مرتين

( ٣ ) « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » لشوقي ضيف .

## ٥ - تأثيره

يذكر ابن خلكان أن ديوان البهاء كان كثير الوجود بأيدي الناس<sup>(١)</sup> ، ومعنى هذا تقدير الناس لشعر البهاء ، وشغفهم به ، وبعد تأثرهم بطريقته ، ونص ابن حجة الحموي صريح في تتلمذ علي بن سعيد الأندلسي على طريقة البهاء الغرامية ، واسترشاده به في سلوكها ، وفي البيتين الآتين لابن سعيد هذا يترقق مذهب البهاء ، يقول ابن سعيد :

واطول شوقي إلى ثغورٍ ملأى من الشهد والرحيق  
عنها أخذتُ الذي تراه يعذبُ من شعري الرقيق<sup>(٢)</sup>

وكان الأندلسيّ يعرض على البهاء شعره ، ويصلح البهاء عليه ما يقول<sup>(٣)</sup> . . . .  
ومن نسج على منوال البهاء في استعمال المعاني البلدية ابن نباتة من شعراء مصر في القرن الثامن الهجري ، حيث يقول :

يا مشتكى الهمِّ دعه وانتظرْ فرَجاً ودارِ وقتك من حينٍ إلى حين  
ولا تعاندْ إذا أصبحتَ في كدرٍ فإنما أنتَ من ماءٍ ومن طين

ولا يزال البهاء حتى هذا الزمان مذكوراً بمذهبه في التقريب بين الفصحى والعامية ، وتطويع اللغة الدارجة لأداء المعاني ، والتعبير عن مختلف العواطف مع تصحيح لغة الحياة العادية على مقتضى قواعد العربية .

(١) « وفيات الأعيان » : ٨٣/٢ .

(٢) « خزانة الأدب » لابن حجة الحموي : ٨ .

(٣) المرجع السابق .

## ٦ - روجه المصرية

ظهرت الروح المصرية في شعر البهاء : تجلى ذلك في الكلمات المفردة ،  
كما تجلت في الشطر من البيت ، وفي البيت ، وفي البيتين ، والمقطوعة ، وفيما يلي  
بعض الأمثلة بذلك :

١ - في الكلمة :

(١) الحديد والخليع

ذهب الحديدُ من الشبا ب فكيف ظنك بالخليع

(٢) مستهتر بمعناها العامي

بعض ما ألقاه منه أنه لا يزال الدهرَ بي مستهترا !

(٣) سلمت ، ودمت

سلمت من كل ألم ودمت موفورَ النعم

(٤) كُفور

فأضحى بها من خالف الدين خائفاً وضاق على الكفار منها كُفورُها

(٥) زبون

وحقكمُ عندي له ألف طالب وألف زبون يشتره بزائد

(٦) مشفق بمعنى ناصح وشفيق

وماليَ أخفى عن حبيبي ضروري وما هو إلا مشفقٌ ونصيح

(٧) اليكُ - والشيشُ

فاليكُ في الرد وهو محتقر خير من الشيش عند حاجته

( ٨ ) صدقة بمعنى المصادقة

عسى نظرة من حسن رأيك صدقة تسوق إلى جذبي بها الماء والكلا

( ٩ ) وحياتكم

أحبابنا وحياتكم سرّ الهوى عندى مصون

وفى بعض هذه الكلمات خطأ لغوى مثل كلمة ( صدقة ) و ( مشفق )  
( مستهتر ) ، ولكنها مصرية البهاء زهير هي التى أوقعته فى مثل هذه الأخطاء ،  
شأن ما يجرى على أقلام بعض الكتاب والشعراء من الأخطاء اللغوية فى هذه  
الأيام . . .

ب - الروح المصرية فى شطر البيت :

( ١ ) نقطع الطريق بالحديث

تحت مطيئنا الأشواق منا ونقطع بالأحاديث الطريقا

( ٢ ) ده شيء ما مرش ببالى

ولكن بدا منه جفاء فساءنى وذلك شيء لم يمرّ ببالى

( ٣ ) الذنب ذنبى

أشكو لك الشوق الذى لاقيته . والذنب ذنبى

( ٤ ) قلبى عندك

قلبى لديك فكيف أذت على البعاد وكيف قلبى ؟

( ٥ ) زى الضرتين

نحن كما الضرتين فى معركة أدرع الصبر عند لقبها

(٦١) حفظها « زى الفاتحة »

وغادة بوصلها مسامحة تحفظُ ودى مثل حفظ الفاتحة

(٧) بعض ما عندى

فكل ما عندك من وحشة فإنها بعضُ الذى عندى

(٨) أسكنك فى عيني - أفرش لك خدى

ويا ليت عندى كل يوم رسولكم فأسكنه عيني ، وأفرشته خدى

(٩) لا شغله ولا مشغله

أصبحتُ لا يشغل ولا مزرعة مذبذباً فى صفقة خاسره

(١٠) مين يقول ؟ ومين يسمع ؟

وكم قلت ولكن أين من يسمع ، أو يدري ؟

(١١) سأذكره بخير - بالله اكتبوا ذاك الحديث

صديق لى سأذكره بخير وأعرفُ كنه باطنه الخبيثا  
وحاشا السامعين تسال عنه وبالله اكتبوا ذاك الحديث

(١٢) على العين والراس

وجاهل أصبح لى عاتبا قلتُ على العينين والراس

(١٢) اعمل حسابك

احسب حسابك فى الذى تنويه من قبل الشروع

(١٣) امشى على عيني لك وراسي

حق على ، وواجب لك أننى أمشى على عيني إليك وراسي

(١٤) احنا فى الحقيقة واحد

أنا فى الحقيقة أنتم هذا اعتقادى فيكم



( ١٥ ) احنا اخوان — مافيش تكليف

أشكو إليك لأننا أخوان      سيان شأنك في الخطوب وشانى  
سقط التكلف والتجمل بيننا      فالأهل أهلى ، والمكان مكانى

( ١٦ ) الحيلة لها ودان

إياك يدري حديثاً بيننا أحدٌ      فهم يقولون : للحيطان آذان

( ١٧ ) النوم سلطان

من لى بنوى أشكو ذا السهاد له      فهم يقولون : إن النوم سلطان

( ١٨ ) ما الحيلة ؟ قل لى ما العمل ؟

مولاي ! ما الحيلة ؟ قل لى : ما العمل ؟      إن صح ما قد ذكروا فلا تسل

( ١٩ ) نهارنا أبيض

فتفضل      فيومنا بك إن زرتنا أغر

( ٢٠ ) العقل زينة

ما العقل إلا زينة      سبحان من أخلاك منه

حـ — الروح المصرية في البيت الواحد :

( ١ ) رأيته قد عبرت ولم تسلم      كأنك قد عبرت على خرابه !

( ٢ ) رجعنا مثل ما رحنا      ولم نربح سوى التعب

( ٣ ) وليس يخرج حتى      تكاد تخرج روحى

( ٤ ) والله إنا بخير      ما دمت أنت بخير

( ٥ ) فاحفظ لسانك تسترخ      فلقد كفى ما قد جرى

( ٦ ) ليت خدتي كان أرضاً      لك فى طول الطريق

د - التعابير المصرية في البيتين والمقطوعة :

(١) لعن الله صاعدا وأباه فصاعدا  
وبنيه فنازلاً واحداً ثم واحداً

\* \* \*

(٢) ملكتمنى رخيصاً فانحطّ قدرى لديكم  
فأغلق الله باباً دخلتُ منه إليكم  
وحققكم ما عرفتم قدر الذى فى يديكم  
حتى ولا كيف أنتم ولا السلام عليكم

\* \* \*

(٣) لعن الله حاجة أبلجأتني إليكم  
وزماناً أحوالى فى أمورى عليكم  
فعسى الله أن يخلصنى من يديكم



## الفصل الرابع

### منتخبات من آثار البهاء زهير

#### ١ - البهاء زهير الكاتب

بعث ملك الفرنجة بكتاب إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب ينذره فيه بالويل والثبور قبيل معركة دمياط فعهد السلطان إلى البهاء زهير في كتابة الجواب ففعل .

رسالة ملك الفرنجة

أما بعدُ : فإنه لم يخفَ عليك أنى أمينُ الأمةِ العيسوية ، كما أنه لا يخفى علىَّ أنك أمين على الأمةِ المُحمدية .

وغيرُ خافٍ عليك أن عندنا أهلَ جزائر الأندلس وما يحملونه إلينا من الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوقَ البقر ، ونقتلُ الرجالَ ، ونرمُلُ النساءَ ، ونستأثر بالبنات والصبيان ، ونخلى منهم الديارَ ، وأنا قد أبديت لك الكفاية ، وبذلتُ لك النصيحةَ إلى الغايةِ والنهاية ، فلو حلفتَ لى بكلِّ الإيمان ، وأدخلت علىَّ القُسُسَ والرهبان ، وحملت قُدَّامى الشمعَ طاعةً للصلبان ، لكنتُ واصلًا إليك ، وقَاتِلُكَ فى أعزِّ البقاعِ عليك ، فإما أن تكون البلاد لى هدية حصلت فى يدى ، وإما أن تكون البلادُ لك والغلبة علىَّ ، فيدُك اليمنى ممتدةٌ إلىَّ ، وقد عرَّفْتُكَ ، وعرفتَ ما قلتُ لك ، وحذَّرتُك من عساكر حضرت فى طاعنى تملأُ السهلَ والجبلَ ، وعددهم كعددِ الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسيافِ القضاء .

جواب السلطان كتبه البهاء زهير

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله  
وصحبه أجمعين . أما بعد ، فإنه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة  
جيوشك وعدد أبطالك ، ونحن أربابُ السيوف ، وما قُتِلَ منا قرنٌ  
إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغٍ إلا دمرناه ، فلو رأت عينك أيها المغرورُ  
حدَّ سيوفنا وعظمَ حروبنا ، وفتحنا منكم الحصونَ والسواحلَ ، وتخريبنا  
ديارَ الأواخرِ منكم والأوائلَ ، لكان لك أن تعضَّ على أناملِك بالندم ،  
ولا بدَّ أن تزلَّ بك القدمُ ، في يومٍ أولُّه لنا وآخرُهُ عليك ، فهناك تسيءُ  
الظنون ، « وسيعلمُ الذين ظلموا أيَّ مقلبٍ ينقلبون » . فإذا قرأتَ  
كتابي هذا فتكون منه على أولِ سورة النحل : « أتى أمر الله فلا  
تستعجلوه » ، وتكون أيضاً على آخر سورة ص : « ولتعلمن نبأه بعد  
حينٍ » وتعود إلى قوله تعالى وهو أصدق القائلين : « كم من فئةٍ قليلة  
غلبت فئةً كثيرةً بإذنِ الله والله مع الصابرين » . وقول الحكماء : « إن  
الباغى له مصرعٌ » . وبغيُّك يصرعُك ، وإلى البلاء يقلبُك . والسلام . »



## ٢ - البهاء زهير الشاعر

( ١ ) الشاعر القوي :

### كفى الله دمياط المكاره

« رأى البهاء في انتصار الملك الكامل ناصر الدين أبي الفتح محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب على الإفرنج وانتزاعه منهم ثغر دمياط - رأى في ذلك عزة للدين ، وفخراً للعرب أجمعين ؛ في مصر ، وفي بغداد ، وفي مكة ، وفي يثرب ، فهز ذلك من شاعريته ، وجعل هذه القصيدة للمدح خالصة ، ذكر فيها جهاد الكامل وصبره حتى ظفر بالنصر المبين ، وجاءت له ملوك الأرض خاضعين ، وصبر عن خواطره نحو هذا كله غير خالط شيئاً من ذلك بطلب رفاً أو عطاء ، أو فخر بشعره على الشعراء . . . » قال :

بك اهتز عطف الدين في حُللِ النصرِ	ورُدَّتْ على أعقابها مِلَّةُ الكُفْرِ
فقد أصبحت - والحمد لله - نعمة	تقصر عنها قدرة الحمد والشكر
يقلُّ بها بذلُ النفوسِ بشارة	ويصغرُ فيها كلُّ شَيْءٍ من النذر
ألا فليقلْ ما شاء من هو قائلُ	ودونك هذا موضعُ النظمِ والنثر
وجدتُ مَحَلًّا للمقالة قابلاً	فما لك إن قصرت في ذاك من عذر
لك الله من مولى إذا جادَ أو سطا	فناهيك من عُرِفَ ، وناهيك من نُكِرِ
تميسُ به الأيامُ في حُللِ الصبا	وترفُلُ منه في مطارِفِهِ الخضرِ
أياديه بيضُ في الورى موسوية	ولكنها تسعى على قدمِ الخضرِ
ومن أجله أضحى المقطمُ شامخاً	ينافس حتى طور سيناء في القدرِ
تدين له الأملاكُ بالكره والرضا	وتخدمُه الأفلاكُ في النهي والأمرِ
فياملكاً سامى الملائكُ رفعة	عن الملا الأعلى له أطيبُ الذكرِ
ليهنك ما أعطاك ربُّك ؛ إنها	مواقفُ هنَّ الغرُّ في موقفِ الحشرِ

وما فرحت مصرٌ بهذا الفتحِ وحدها  
فلو لم يقيم بالله حقَّ جهاده  
وأقسم لولا همةٌ كامليَّةٌ  
فمن مبلغٍ هذا الهناءَ بمكةٍ  
فقل لرسولِ الله : إن سَمِيه  
هو الكاملُ المولى الذى إن ذكرته  
به ارتجعت دمياطُ قهراً من العدا  
ورَدَّ على المحرابِ منها صَلَاتَه  
وأقسم إن ذاقَتْ بنو الأصغرِ الكرى  
عجيبٌ لبحرِ جاء فيه سفينُهم  
ألا إنها من فعلةٍ لكبيرةٍ  
ثلاثةٌ أعوامٍ أقمتَ وأشهرًا  
صبرتَ إلى أن أنزلَ الله نصرَه  
وليلاً غزوٍ للعدوِّ كأنها  
فيا ليلةٌ قد شرفَ الله قدرَها  
سدَّتْ سبيلَ البرِّ والبحرِ منهم  
أساطيلُ ليست فى أساطيرٍ من مضى  
وجيشٌ كمثل الليلِ هولا وهيبةٌ  
وكل جوادٍ لم يكن قطُّ مثله  
وبانت جنودُ الله فوق ضوامر

لقد فرحت بغدادُ أكثرَ من مصرٍ  
لما سلمت دارُ السلامِ من الذعرِ  
لخافت رجالُ بالمقامِ وبالحجرِ  
ويثربُ يُنهيهِ إلى صاحبِ القبرِ  
حمى بيضةَ الإسلامِ من نوبِ الدهرِ  
فيا طرب الدنيا ! ويا فرحَ الدهرِ  
وطهرها بالسيفِ والمِلةِ الطُّهرِ  
وكم بات مُشتاقاً إلى الشفعِ والوترِ  
فلا حلِمت إلا بأعلامِهِ الصُّفرِ  
ألسنا نراه عندنا ملك الغمرِ ؟  
سيطلبُ منها عفوَ حلِمِكَ واليسرِ  
تجاهدُ فيهم لا بزيدٍ ولا عمرو  
لذلك قد أحمَدت عاقبةَ الصبرِ  
بكثرةٍ من أرديته ليلةَ النحرِ  
ولا غرو إن سميتها ليلةَ القدرِ  
بسابعةٍ دُهمٍ ، وسابحةٍ غرٍّ  
بكلِّ غرابٍ راحَ أفتك من صقرِ  
وإن زانه ما فيه من أنجمٍ زُهرِ  
لآلٍ زهيرٍ لا ، ولا لبنى بدرِ  
بأوضحها تُغنى السُراةُ عن الفجرِ<sup>(١)</sup>

(١) الضوامر : جمع ضامرة وهى الخيل .

وَأَشْرَقَ وَجْهُ الْأَرْضِ جَذْلَانِ بِالنَّصْرِ  
وَأَشْبَعَتْ مِنْهُمْ طَاوِي الذَّنْبِ وَالنَّسْرِ<sup>(١)</sup>  
تَجْرَجِرُ أَذْيَالَ الْمَهَانَةِ وَالصُّغْرِ  
فَمَنْ جُودِهِ ذَاكَ السَّحَابُ الَّذِي يَسْرِي  
عَلَى الرِّغْمِ مِنْ بَيْضِ الصَّوَارِمِ وَالسُّمْرِ<sup>(٢)</sup>  
لَمَنْ قِبَلَةِ الْإِسْلَامِ فِي مَوْضِعِ النَّحْرِ  
يَحُلُّ مَحَلُّ الرِّيقِ مِنْ ذَلِكَ الثَّغْرِ  
وَقَدْ طَارَتْ الْأَعْلَامُ مِنْهَا عَلَى وَكْرٍ  
وَأَنْسَى حَدِيثًا عَنْ حُنَيْنٍ وَعَنْ بَدْرٍ  
لَقَدْ جَمَعُوا بَيْنَ الْغَنِيمَةِ وَالْأَجْرِ  
إِذَا كَانَ مِنْ ذَاكَ الْفَتْوحِ عَلَى ذِكْرِ  
وَيَفْعَلُ بِي مَا لَيْسَ فِي قُدْرَةِ الْخَمْرِ  
كَأَنِّي ذُو وَقْرٍ ، وَلَسْتُ بِذِي وَقْرٍ<sup>(٣)</sup>  
وَيُغْنِي عَنِ الْأَزْوَادِ فِي الْبَلَدِ الْقَفْرِ  
أَقْرُّ بِهِ سَمْعِي ، وَأَذْكُرُهُ فَكْرِي  
أَكْذَبُ مِنْهُ بِالصَّحِيحِ مِنَ الْأَمْرِ  
مَنْ الْقَتْلِ قَدْ أَنْجَيْتَهُ ، أَوْ مِنَ الْأَسْرِ  
وَلَوْ جَاءَ بِالشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ وَالْبَدْرِ

فَلَا زِلْتَ حَتَّى أَيْدَ اللَّهِ حَزْبَهُ  
فَرُوِّتَ مِنْهُمْ ظَامِي الْبَيْضِ وَالْقَنَا  
وَجَاءَتْ مَلُوكُ الْأَرْضِ نَحْوِكَ خُضْعًا  
أَتَوْا مَلِكًا فَوْقَ السَّمَاءِ مَحَلَّهُ  
فَمَنْ عَلَيْهِمْ بِالْأَمَانِ تَكْرُمًا  
كَفَى اللَّهُ دِمْيَاطَ الْمَكَارَةِ ؛ إِنَّهَا  
وَمَا طَابَ مَاءُ النَّيْلِ إِلَّا لِأَنَّهُ  
فَلَّهُ يَوْمُ الْفَتْحِ يَوْمَ دُخُولِهَا  
لَقَدْ فَاقَ أَيَّامَ الزَّمَانِ بِأَسْرِهَا  
وَيَا سَعْدَ قَوْمٍ أَدْرَكُوا فِيهِ حَظَّهُمْ  
وَإِنِّي لِمُرْتَاكِحٌ إِلَى كُلِّ قَادِمٍ  
فَيَطْرُبُنِي ذَاكَ الْحَدِيثُ وَطِيبُهُ  
وَأُصْغِي إِلَيْهِ مُسْتَعِيدًا حَدِيثَهُ  
يَقُومُ مَقَامَ الْبَارِدِ الْعَذْبِ فِي الظَّمَا  
فَكَمْ مَرَّ لِي يَوْمٌ إِذَا مَا سَمِعْتُهُ  
وَهَا أَنَا ذَا حَتَّى إِلَى الْيَوْمِ رُبَّمَا  
لَكَ اللَّهُ مِنْ أَثْنِي عَلَيْكَ ، فَإِنَّمَا  
يَقْصُرُ عَنْكَ الْمَدْحُ مِنْ كُلِّ مَادِحٍ

(١) البَيْضُ : السُّيُوفُ . وَالْقَنَا : الرِّمَاحُ : وَالطَّوِيُّ : الْجَائِعُ .

(٢) الصَّوَارِمُ : السُّيُوفُ . وَالسُّمْرُ : الرِّمَاحُ .

(٣) ذُو وَقْرٍ : بِهِ صَمٌّ .

## يروى القنا بدم الأعادى

قال البهاء يمدح السلطان الصالح نجم الدين أيوب أخا الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الملك الكامل سنة ٦٢٢ هـ ويصف شجاعته وتمثيله بالأعادى ، وتشير هذه القصيدة إلى أن الصالح نجم الدين أيوب دعا البهاء إلى خدمته فسعى إليه ملبياً ، راجياً أن تتحقق آماله ، وارتبط البهاء بالصالح لا يفارقه فى ظعن أو إقامة ، وأغلق عليه السلطان من البر والعطاء ما جعله فى غنى عن غيره من الناس .

وَتَلَا فِ قَلْبِي مِنْ جَفَوْنٍ تَنْطِقُ	وَعَدَ الزِّيَارَةَ طَرَفُهُ الْمُتَمَلِّقُ
وَأَهْمُ بِالْقَدُّ الرِّشِيقُ وَأَعَشَقُ	إِنِّى لَأَهْوَى الْحَسْنَ حَيْثُ وَجَدْتُهُ
مِثْلُ الْكُثَيْبِ عَلَيْهِ صِلْ مُطَرِّقُ <sup>(١)</sup>	وَبِلَيْتِي كَفَلْ عَلَيْهِ ذُوَابَةُ
فَعَسَاكَ تَحْنُو ، أَوْ لَعَلَّكَ تَرْفُقُ	يَا عَاذِلِي ، أَنَا مِنْ سَمِعَتَ حَدِيثَهُ
لَرَأَيْتَ ثَوْبَ الصَّبْرِ كَيْفَ يُمَزَّقُ	لَوْ كُنْتَ مِنَّا حَيْثُ تَسْمَعُ أَوْ تَرَى
وَعَجِبْتَ مِمَّنْ لَا يُحِبُّ وَيَعَشَقُ	وَرَأَيْتَ الْلَطْفَ عَاشِقَيْنِ تَشَاكِيَا
وَحَيَاتِهِ قَلْبِي أَرْقُ وَأَشْفَقُ ؟	أَيْسَوْمُنِي الْعُدَّالُ عَنْهُ تَصْبِرَا
لَا أَنْشِي ، لَا أَنْتَهِي ، لَا أَفْرَقُ	إِنْ عَنَّفُوا ، أَوْ خَوْفُوا ، أَوْ سَوْفُوا
كَالْعِقْدِ فِي جِيدِ الْمَلِيحَةِ يَقْلَقُ	أَبَدًا أَزِيدُ مَعَ الْوِصَالِ تَلَهُّفًا
كَالْمَسْكِ تَسْحَقُهُ الْأَكْفُ فَيَعْبَقُ	وَيَزِيدُنِي تَلَفًا فَأَشْكُرُ فَضْلَهُ
يَا هَاجِرِي ، إِنِّي إِلَيْكَ لَشَيْقُ <sup>(٢)</sup>	يَا قَاتِلِي ، إِنِّي عَلَيْكَ لِمَشْفِقُ
يَا رَبُّ ، لَا عَاشُوا لَذَاكَ وَلَا بَقُوا	وَأَذَاعَ أَنِّي قَدْ سَلَوْتُكَ مَعْشَرُ
خَوْفًا عَلَيْكَ إِلَيْهِمْ أَتَمَلِّقُ	مَا أَطْمَعُ الْعُدَّالَ إِلَّا أَنْنِي
فَاشْهَدْ عَلَيَّ بِأَنَّنِي لَا أَصْدُقُ	وَإِذَا وَعَدْتُ الطَّرْفَ فَيْكَ بِهِجَعُ

(١) الكثيب : ائبل من الرمل . والصل : الأفعى .

(٢) الشيق : المشتاق .

قد كَانَ لِي مِنْهُ الْمَحَبُّ الْمُشْفِقُ  
 فَلَقَدْ نَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ مَخْلُقُ  
 تَقْضَى بِسَعْيِي أَنَّهُ لَا يُخْفِقُ  
 مِنْ فَرَطٍ غَيْرَتِهَا إِلَى تَحْدُقُ  
 تَقِفُ الْمُلُوكُ بِبَابِهِ تَسْتَرْزِقُ  
 أَلْفَيْتُ قَلْبَ الدَّهْرِ فِيهِ يَخْفِقُ  
 قَدْ لَاحَ نَجْمُ الدِّينِ لِي يَتَّالِقُ  
 حُسْنُ يَتِيهِ بِهِ الزَّمَانُ وَرَوْنَقُ  
 سَنَدُ لَعَمْرُكَ فِي الْعُلَى لَا يُلْحَقُ  
 أَوْ مَا تَرَاهَا حِينَ يَقْبَلُ تُطْرَقُ  
 فَلَكُمْ سَدِيرٌ عِنْدَهَا وَخَوَرْنَقُ<sup>(١)</sup>  
 وَالرِّزْقُ إِلَّا مِنْ نَدَاهُ مُضَيِّقُ  
 وَعَلَوْ مِنْ أَمْسَى بِهِ يَتَعَلَّقُ  
 فِيهِ ، وَلَا الْخَلْقُ الْكَرِيمُ تَخْلُقُ  
 يَدْعُو عَلَيْهِ فَشَمْلُهُ يَتَفَرَّقُ  
 فَلَهَا إِلَيْهِ تَشَوُّفٌ وَتَشَوُّقُ  
 فَالسُّمَرُ تَرْقُصُ ، وَالسِّيُوفُ تُصَفِّقُ  
 تَحْتَ الْعَرِيكَ ، وَهُوَ بِدُرٍّ مُشْرِقُ<sup>(٢)</sup>  
 فَلَذَاكَ يُثْمِرُ بِالرُّعُوسِ وَيُورِقُ

فَعَلَامَ قَلْبِكَ لَيْسَ بِالْقَلْبِ الَّذِي  
 وَأَظُنَّ خَدَّكَ شَامِتًا بِفِرَاقِنَا  
 وَلَقَدْ سَعَيْتُ إِلَى الْعِلَاءِ بِهَمَةٍ  
 وَسَرِيَتْ فِي لَيْلٍ كَأَنَّ نَجْوَاهُ  
 حَتَّى وَصَلْتُ سَرَادِقَ الْمَلِكِ الَّذِي  
 وَوَقَفْتُ مِنْ مَلِكِ الزَّمَانِ بِمَوْقِفٍ  
 فَإِلَيْكَ يَا نَجْمَ السَّمَاءِ ، فَإِنِّي  
 الصَّالِحِ الْمَلِكِ الَّذِي لَزَمَانِهِ  
 مَلِكٌ يَحْدُثُ عَنْ أَبِيهِ وَجَدُّهُ  
 سَجَدَتْ لَهُ كُلُّ الْعَيُونِ مَهَابَةً  
 رَحْبُ الْجَنَابِ خَصِيْبَةٌ أَكْنَافُهُ  
 فَالْعَيْشُ إِلَّا فِي ذَرَاهِ مُنْكَدُّ  
 يَا عَزُّ مِنْ أَضْحَى إِلَيْهِ يَنْتَمِي  
 أَقْسَمْتُ مَا الصَّنْعُ الْجَمِيلُ تَصْنَعُ  
 يَدْعُو الْوُفُودَ لِمَالِهِ فَكَأَنَّمَا  
 أَبَدًا تَحْنُ إِلَى الطَّرَادِ جِيَادُهُ  
 يَبْدَى لَسَطُوتِهِ الْخَمِيْسُ تَطْرِبُ  
 فِي طَيِّ لَأُمْتِهِ هَزْبَرٌ بِاسِلٌ  
 يُرَوِي الْقَنَا بَدَمِ الْأَعَادِي فِي الْوَعَى

(١) الْأَكْنَافُ : الْجَوَانِبُ .

(٢) اللَّامَةُ : الدَّرْعُ .



يَمْضَى فَيَقْدُمُ جَيْشُهُ فِي هَيْبَةٍ  
 مَلَأَ الْقُلُوبَ مَخَافَةً وَمَحَبَّةً  
 سَتَجُوبُ آفَاقَ الْبِلَادِ جِيَادُهُ  
 لَبَّيْكَ يَا مَنْ لَا مَرَدَّ لِأَمْرِهِ  
 لَبَّيْكَ يَا خَيْرَ الْمُلُوكِ بِأَسْرِهِمْ  
 لَبَّيْكَ أَلْفَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي  
 فَعَدَلْتَ حَتَّى مَا بَهَا مَظْلَمٌ  
 أَنَا مِنْ دَعْوَتِكَ وَقَدْ أَجَابَكَ مَسْرِعاً  
 أَلْفَيْتُ سَوْقاً لِلْمَكَارِمِ وَالْعُلَى  
 يَا مَنْ إِذَا وَعَدَ الْمُنَى قُصَّصَادَهُ  
 يَا مَنْ رَفَضْتُ النَّاسَ حِينَ لَقِيْتُهُ  
 قَيَّدْتُ فِي مَصْرِ إِلَيْكَ رُكَّائِي  
 وَحَلَلْتُ عِنْدَكَ إِذْ حَلَلْتُ بِمَعْقِلِ  
 وَتَيَقَّنَ الْأَقْوَامُ أَنِّي بَعْدَهَا  
 فَرَزِقْتُ مَا لَمْ يُرْزَقُوا ، وَنَطَقْتُ مَا

جَيْشٌ يَغْصُ بِهِ الزَّمَانُ وَيُشْرِقُ<sup>(١)</sup>  
 فَالْبَاسُ يُرْعِبُ ، وَالْمَكَارِمُ تُعْشَقُ  
 وَيُرَى لَهُ فِي كُلِّ فَجٍّ فَيْلَقُ  
 وَإِذَا دَعَا الْعَيُّوقَ لَا يَتَعَوَّقُ<sup>(٢)</sup>  
 وَأَعَزَّ مِنْ تُحْدَى إِلَيْهِ الْأَيْتُقُ  
 جَمَعَ الْقُلُوبَ نَوَالَهُ الْمُتَفَرِّقُ  
 وَأَنْلَتِ حَتَّى مَا بَهَا مُسْتَرْزِقُ  
 هَذَا الثَّنَاءُ لَهُ ، وَهَذَا الْمُنْطِقُ  
 فَعَلِمْتُ أَنَّ الْفَضْلَ فِيهِ يَنْفُقُ  
 قَالَتْ مَوَاهِبُهُ يَقُولُ وَيَصْدُقُ  
 حَتَّى ظَنَنْتُ بِأَنَّهُمْ لَمْ يُخْلَقُوا  
 غَيْرِي يَغْرُبُ تَارَةً ، وَيُشْرِقُ  
 يُلْفَى لَدَيْهِ مَارِدٌ وَالْأَبْلَقُ<sup>(٣)</sup>  
 أَبَدًا إِلَى رُتَبِ الْعُلَا لَا أَسْبَقُ  
 لَمْ يَنْطِقُوا ، وَلَحَقْتُ مَا لَمْ يَلْحَقُوا

(١) شرق بريقه : غص .

(٢) العيوق : نجم أحمر مضى في طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها .

(٣) الأبلق : اسم حصن السمول ، وفيه يقول :

هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره يعز على من رآه ويطول<sup>٣</sup>



## يا أسفى

وهذه قصيدة من حجازيات البهاء ، يحن فيها إلى عيشه الوارف فى الحجاز ، ويأسى إذ شط به المزار ، وثأت به الديار ، وغاب عنه أحباؤه ، وهو من أجل ذلك لا يبرح الحجاز عن خياله ، ولا يكاد ينفصل عن باله ، ويلتمس من أصحابه أن يعرضوا بذكره عند من يهوى لعل ذلك يدعوها إلى السؤال عن حاله :

أَحْنُ إِلَى عَهْدِ الْمُحْصَبِ مِنْ مَنِ	وعيش به كانت ترفٌ ظلاله
ويا حبذا أمواهه ونسيمه	ويا حبذا حصباؤه ورماله !
ويا أسفى ، إذ شط. عني مزاره	ويا حزنى ، إذ غاب عني غزاله
وكم لي بين المروتين لبانة	وبدر تمام قد حوته حجاله
مقيم بقلبي - حيث كنت - حديثه	وباد لعيني - حيث سرت - خياله
وأذكر أيام الحجاز ، وأنشئ	كأنى صريع يعتريه خياله
ويا صاحبي بالخيف ، كن لي مسعدا	إذا آن من بين الحجيج ارتحالاه
وخذ جانب الوادى كذا عن يمينه	بعيث القنا يهتز منه طواله
هناك ترى بيتا لزينب مشرقا	إذا جئت لا يخفى عليك جلاله
فقل ناشدا بيتا ومن ذاق مثله	لدى جيرة لم يدر كيف احتياله
وكن هكذا حتى تصادف فرصة	تصيب بها ما رمته وتناله
فعرض بذكرى حيث تسمع زينب	وقل ليس يخلو ساعة منك باله
عساها إذا ما مر ذكرى بسمعها	تقول : فلان عندكم كيف حاله ؟

## يا طول شوقي وحنيني !

يحن البهاء في هذه القصيدة إلى موطنه الأول بالحجاز ، حيث قضى صباه ، ويذكر عهوده الخوالي بين زمزم والمقام ، والمحصب وما دونه من الحجون ، وقد كان عيشه رغداً ، ووقته واسعاً . . .

سقى الله أرضاً لست أنسى عهودها      ويا طول شوقي نحوها وحنيني !  
 بلاد إذا شارفت منها نجومها      بدا النور في قلبي ، وفوق جبيني  
 منازل كانت لي بهنّ منازل      وكان الصبا إلى بها وقريني  
 تذكّرت عهداً بالمحصب من منى      وما دونه من أبطح وحجون  
 وأيامنا بين المقام وزمزم      وإخواننا من ' وافد وقطين  
 ويا طيب نادى ذرى البيت بالضحي      وظلّ يقوم العود فيه بحين  
 وقد بكرت من نحو نعمان نسمة      تحدّث عن أيلك بها وغصون  
 زمان عهدت الوقت لي فيه واسعاً      كما شئت من جد به ومجون  
 إذ العيش نضر فيه للعين منظر      وإذا وجهه غصّ بغير غصون

(ب) الشاعر الاجتماعي :

## مناقب شتى

قال يمدح علاء الدين ابن الأمير شجاع الدين جلدك التقوى .

هذه القصيدة نموذج لما كان ينهجه البهاء في مدائحه ، فهو يقدم بالنسيب ، ويخلص منه في لطف وتوفيق إلى المديح ، ثم يفخر بشعره وأنت ترى أن الغرضين : الأول والأخير قد طغيا على الملح حتى لم يبق له من القصيدة التي عدتها عشرون بيتاً إلا أربعة أبيات كما ترى :

أغصن النقا ، لولا القوام المهفّ هف      لما كان يهواك المعنى المعنف<sup>(١)</sup>  
 ويا ظي ، لولا أن بفيلك محاسناً      حكين الذي أهوى لما كنت توصف

(١) النقا ؛ القطعة من الرمل المحدودة .

وَهَمْتُ بِظَبِي وَهُوَ ظَبِيٌّ مُشَنَّفٌ  
 أَقُولُ : كَلِيلٌ طَرَفُهُ وَهُوَ مَرَهْفٌ  
 بِهِ الْوَرْدُ يُسَمَّى مُضْعَفًا ، وَهُوَ مُضْعِفٌ  
 وَيَا غَصَنُ ، هَلَا كَانَ فِيكَ تَعْطَفٌ  
 وَالْبَابُنَا مِنْ حَوْلِهِ نَتَخَطَّفُ  
 عَلَى فَإِنِّي أَعْرِفُ الْوَاوَ تَعْطَفُ  
 فَقَدْ زَادَ عَمَّا تَعْرِفُونَ ، وَأَعْرِفُ  
 فِي كَلَفٍ فِي حَمَلِهِ أَتَكَافُ  
 وَجَهْدِي لَكُمْ أَنِّي أَقُولُ وَأَحْلِفُ  
 تَشَوَّقُ قَلْبٌ قَادَنِي وَتَشَوَّفُ  
 تَوَدُّبٌ مِنْ يَثْنِي عَلَيْهِ وَتُطْرِفُ  
 وَأَصْنِي مِنَ الْخَمْرِ السَّلَافُ وَالْطَفُ  
 لَمَّا ذَكَرْتُ يَوْمًا لَهُ الْقَوْسَ خِنْدِفٌ<sup>(١)</sup>  
 وَأَصْبَحَ عَنْهَا أَحْنَفٌ وَهُوَ أَحْنَفُ<sup>(٢)</sup>  
 لَمَّا ضَمِنْتَهُ وَهُوَ قَوْلٌ مَزْخَرَفُ  
 وَحَاشَاكَ مِنْهُ قَلْبُهُ يَتَنَطَّفُ

كَلِفْتُ بِغَصَنِ ، وَهُوَ غَصَنٌ مُنْطَقٌ  
 وَمِمَّا دَهَانِي أَنَّهُ مِنْ حَيَاتِهِ  
 وَذَلِكَ أَيْضًا مِثْلُ بَيْسْتَانِ خَدِّهِ  
 فَيَا ظَبِي ، هَلَا كَانَ فِيكَ التَّفَاتِهِ  
 وَيَا حَرَمَ الْحَسَنِ الَّذِي هُوَ آمَنُ  
 عَسَى عَطْفَةً لِلْوَصْلِ يَا وَاوْ صَدَغِهِ  
 أَحْبَابُنَا ، أَمَّا غَرَامِي بَعْدَكُمْ  
 أَطْلَمَ عَذَابِي فِي الْهَوَى فَتَرَفَّقُوا  
 وَوَاللَّهِ مَا فَارَقْتَكُمْ عَنْ مَلَامَةٍ  
 وَلَكِنْ دَعَانِي لِلْعَلَاءِ بْنِ جِلْدِكِ  
 إِلَى سَيِّدِ أَخْلَاقِهِ وَصِفَاتِهِ  
 أَرَقُّ مِنَ الْمَاءِ الزُّلَالِ شِمَائِلًا  
 مَنَاقِبُ شَتَّى لَوْ تَكُونُ لِحَاجِبِ  
 غَدَا مِنْ مَدَاهَا حَاتِمٌ وَهُوَ حَاتِمٌ  
 أَتَمَّتْكَ الْقَوَافِي وَهِيَ تُحَسَّبُ رَوْضَةً  
 وَلَوْ قَصِدْتَ بِالْذَّمِّ شَانِيكَ لَاغْتَدَى

(١) حاجب : يريد به حاجب بن زرارة بن عدي الداري التميمي وهو من سادات العرب في الجاهلية رهن قومه عند كسرى على مال عظيم ووفى به . خندف : هي ليل بنت حلوان بن عمران من قضاة ، أم جاهلية ينسب إليها بطن من مضر من العدنانية .

(٢) حاتم الأولى : هو حاتم الطائي المشهور بالكرم . وحاتم الأخرى : المنقطع . وأحنف الأولى : هو الأحنف بن قيس أبو بحر الضحاك بن قيس بن معاوية التميمي الملقب بالأحنف سيد تميم وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين يضرب به المثل في الحلم . وأحنف الأخرى . من اعوجت رجله إلى داخل .

تَقَلَّدُ عَارًا وَهِيَ دُرٌّ مُنَظَّمٌ      وَتَلْبِسُ حُزْنًا وَهِيَ بُرْدٌ مُفَوَّفٌ  
وَتُصَلِّي جَحِيمًا وَهِيَ فِي الْحَسَنِ جَنَّةٌ      وَتَسْتَقِي دِهَاقًا وَهِيَ صَهْبَاءُ قَرَقَفٌ<sup>(١)</sup>

## يولي المنايا والمنى

قال يمدح الأمير النصير اللطى ، ويهنته بالقدوم :

ويعمد البهاء زهير في هذه القصيدة إلى الملاح من غير تقديم بالنسيب ، وأنت ترى فيها شيوع المحسنات البديعية ، وذكره الممدوح بصفات الشجاعة والكرم والمجد والشرف والحلم ، ثم الختم بذكر شعره فاخراً به ، والجديد في هذه القصيدة تعبيره عن خواطره في حالي غيبة الأمير اللطى و قدومه ... والقصيدة - بعد ذلك - معرض لثقافة البهاء وتلقى ضوءاً على الحال الاجتماعية في عصره .

صفحاً لهذا الدهر عن هَفَوَاتِهِ      إِذْ كَانَ هَذَا الْيَوْمُ مِنْ حُسْنَاتِهِ  
يَوْمٌ يَسْطُرُ فِي الْكِتَابِ مَكَانَهُ      كَمَا كَانَ بِسْمِ اللَّهِ فِي خَتَمَاتِهِ  
مَطْلُ الزَّمَانِ بِهِ زَمَانًا آتِئًا      أَنْفَتَ ، وَعَادَ لَهَا إِلَى عَادَاتِهِ  
وَالْغَيْثُ لَا يَسْمُ الْبِلَادَ بِنَفْعِهِ      إِلَّا إِذَا اشْتَاقَتْ لَوْسِمِيَّاتِهِ<sup>(٢)</sup>  
يَا مُعْجَزَ الْأَيَّامِ قَرَعَ صِفَاتِهِ      وَمَجْمَلُ الدُّنْيَا بِحَسَنِ صِفَاتِهِ  
بَلْ أَحْنَفًا فِي حَلِمِهِ وَثْبَاتِهِ      بَلْ حَارِثُ الْهَيْجَاءِ فِي وَثْبَاتِهِ  
بَلْ كَعْبَةُ الْمَعْرُوفِ ، بَلْ كَعْبُ النَّدَا      وَالْمَاءُ يَقْسِمُ شَرْبَهُ بِحَصَاتِهِ  
إِنْ كُنْتَ غَبْتَ عَنِ الْبِلَادِ فَلَمْ تَغِبْ      مِنْ خَاطِرِي إِذْ كُنْتَ مِنْ خَطَرَاتِهِ  
لَوْ كُنْتَ فَتَشَّتَ النَّسِيمَ وَجَدْتَهُ      وَدَعَاؤُنَا يَا تُبَيْكُ فِي طَيَّاتِهِ  
وَكُنِي اهْتِمَامًا مِنْهُمَا بِكَ أَنْ غَدَا      كُلُّ يُرِيدُكَ أَنْ تَكُونَ لِدَاتِهِ  
وَالْجَدُّ إِنْ أَمْضَى عَزِيمَةً مَاجِدٍ      رَاحَ السَّكُونُ يَنْوِبُ عَنْ حَرَكَاتِهِ

(١) الدهاق : الكأس الممتلئة . القرقف : الخمر .

(٢) وسم المطر الأرض : أصابها الوسمى وهو أول مطر الربيع .

منَّا لقاسمه لذيذ حياته  
 يُفَضِّي إلى رُتَبِ العُلا لم تاته  
 كثلاثة الجوزاء في جنباته  
 يسمو إلى أملافه بِسِماته  
 وأعاره بهرام من سطواته (١)  
 هو فيهم كالسن فوق لثاته  
 حسباً ، وهم في الدهر خير سراته (٢)  
 متيقظ. وهب العلاء غفواته  
 كرمًا ، ولم يفرض وجوب صلاته  
 غاباته ، والغيث في غاياته  
 سكبت شبا الهندي من سفراته  
 زمنًا ، وقد لبَّاك من ميقاته  
 وافاك لا هرمًا على علاته (٣)  
 لزهير عصرك بعض ليلياته  
 عن ذكر حسان وعن جفناته

وأنى البشيرُ فلو يسوغ لواحد  
 فارباً بعزك لم تدع من منصب  
 وتفرعت للمجد منك ثلاثة  
 عن كل مهدى غدا في مهده  
 أفضى إليه المشتري بسعوده  
 شرفت بنصر في البرية معشر  
 قوم هم في البید خير سراتها  
 شرف الزمان بكل ندب منهم  
 ألف النداء ، ورأى وجوب صلاته  
 يولى المنايا والمنى كالليث في  
 ذى عزمة إن راح في سفراته  
 يا منسك المعروف ، أحرم منطقي  
 هذا زهيرك لا زهير مزينة  
 دعه وحوليَّاته ، ثم استمع  
 لو أنشدت في آل جفنة أعرضوا

### جناب فيه للمجد مرتقى

قال يملح صاحب صنو الدين أبا عبد الله بن علي المعروف بابن شكر :

أخلت عليه بالمحبة موثقاً وما زال قلبي من تجنيه مُشفقاً

(١) المشتري : نجم من السيارات .

(٢) السراة بالضم : جمع سار وهو السائر ليلاً . والسراة بالفتح : جمع سري وهو الشريف .

(٣) زهير مزينة : يريد به زهير بن أبي سلمى الشاعر الجاهلي المشهور صاحب الحوليات .

وهرم : هو هرم بن سنان أحد أجواد العرب .

وقد كنت أرجو طيفه أن يُلِمَّ بي  
 ولى فيه قلبٌ بالغرامِ مقيدٌ  
 كلفتُ به أحوى الجفونِ مُهَفِّهًا  
 ومن فرطِ وجدى فى لَمَاهِ وثغره  
 كذلك لولا بارقٌ من جبينه  
 ولى حاجةٌ من وصله غير أنها  
 خليلي كُفًّا عن ملامه مُغْرَمٌ  
 ولا تحسبًا قلبي كما قلتُما سلا  
 فما ازداد ذاك القلبُ إلا تماذياً  
 إلى كم أرجى باخلاً . بِوِصَالِهِ  
 فحسبُ فؤادى لوعةً وصبايةً  
 على أنها الأيامُ مهما تداولت  
 ولست ترى خلاً من الغدرِ سالماً  
 إذا نلتَ منه الودَّ كان تكلُّفًا  
 ومما دهانى حرفةٌ أدبيَّةٌ  
 وإن شملتني نظرةٌ صاحبِيَّةٌ  
 وزيرٌ إذا ما شمتَ غرَّةَ وجهه  
 ذممتُ السحابَ الغرَّ يوم نَوَّاله

فأسهرنى ؛ كى لا يُلِمَّ وَيَطْرُقَا (١)  
 له خبرٌ يرويه دمعى مُطْلَقًا  
 من الظبي أحلى ، أو من الغصن أرشقا  
 أعللُ قلبي بالعذيبِ وبالنقا  
 لما شمتُ برقًا ، أو تذكرتُ أورقا  
 مرددةٌ بين الصبايةِ والتقى  
 تذكرُ أياماً مضت فتشوقا  
 ولا تحسباً دمعى كما قلتما رقا (٢)  
 وما ازداد ذاك الدمعُ إلا تدفقًا  
 وحتى متى أخشى القلى والتفرقا (٣)  
 وحسبُ جفونى عبرةً وتارقا  
 سرورٌ تقضى ، أو جديدٌ تمزقا  
 ولا تنتقى يوماً صديقاً فيصدقا  
 وإن نلتَ منه البشرَ كان تملقا  
 غدتُ دون إدراكِ المطالب خندقا  
 فلستُ أرى يوماً من الدهر مُمْلِقًا  
 فدعُ لِسِوَاكَ العارضَ المتألقا  
 وحقرَ عندى وبَلَهَا المُتَدَفِّقا

(١) الطيف : الخيال يلم فى المنام .

(٢) رقا : رقا أى تكفكف .

(٣) القلى : البغض .



وفيه لذي الحاجات والنجح ملتقى  
 جمعتُ به كلَّ التعاويذ والرقي  
 ويكفيك من أحداثها ما تطرّقا  
 تركتُ به وجهَ الشريعة مُشرقاً  
 فعلمنا هذا الكلام المونقاً  
 فنزخرُفها مما أفدت ونمقاً  
 وإن عذبتُ شرباً فمن بحرك استقى  
 تريك جريراً عبدها، والفرزدقا  
 هي التبرُّ مسبوكة، أو الدرُّ مُنتقى  
 ولا إن حكّت زهرَ الرياض المعبقاً  
 كستها جمالاً في النفوس ورونقاً

وجدت جناباً فيه للمجد مرتقى  
 إذا قلتُ عبدُ الله ثم عنيته  
 يقيك من الأيام كلَّ مليمه  
 وكم لك فينا من كتاب مصنف  
 عكفنا عليه نجتني من فنونه  
 وكم شاعر وافي إليك بمدحه  
 فإن حسنت لفظاً فمن روضك اجتنى  
 فلا زلت ممدوحاً بكل مقالة  
 وما حسنت عندي وحقك إذ غدت  
 ولا إن جرت مجرى النسيم لطافة  
 ولكنها حازت من اسمك أحرفاً

### بعض هباته المفاخر والمآثر والاعلا

قال يملح الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي بن  
 الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب سنة ٦٤٦ :

وقنعتُ منه بموعِدٍ فتعلّلا  
 بشراً كما قد كنت أعهدُ أولاً  
 وسهرتُ ليلي كله مُتملّلاً  
 متحرّكاً في فِكْرِي مُنخِلاً  
 سَهْرِي فعادَ بِغَيْظِهِ فتَقولاً  
 عنه فراح يَقُولُ عَنِّي : قد سلا

عرفَ الحبيبُ مكانه فتدلّلا  
 وأتى الرسوم ، ولم أجذ في وجهه  
 فقطعتُ يومى كله مُتفكراً  
 وأخذتُ أحسب كلَّ شَيْءٍ لم يكن  
 فلعلّ طيفاً زارَ منه فردّه  
 وعسى نسيمُ بتُ أكتمُ سرّنا

ولقد خَشِيتُ بَأْنَ يَكُونُ أَمَالَهُ  
 وَأَظْنَهُ طَلَبَ الْجَدِيدِ ، وَطَالَمَا  
 أَبَدًا يَرَى بُعْدِي ، وَأَطْلُبُ قُرْبَهُ  
 وَعَلِيقَتُهُ كَالْغُصْنِ أَشْمَرَ أَهْيَقًا  
 فَضَحَ الْغَزَالَةَ وَالْغَزَالَ : فَتِلْكَ فِي  
 عَجَبًا لِقَلْبٍ مَا خَلَا مِنْ لَوْعَةٍ  
 وَرِسْمٍ جِسْمٍ كَادَ يَخْرِقُهُ الْجَوَى  
 وَهَوَى حَفِظَتْ حَدِيثَهُ وَكَتَمَتْهُ  
 أَهْوَى التَّذَلُّلِ فِي الْغَرَامِ ، وَإِنَّمَا  
 مَهَّدْتُ بِالْغَزَلِ الرَّقِيقِ لِمَدْحِهِ  
 مَلِكٍ شَمَخْتُ عَلَى الْمُلُوكِ بِقُرْبِهِ  
 وَرَفَعْتُ صَوْتِي قَائِلًا يَا يَوْسُفُ  
 ثُمَّ التَّفْتُ وَجَدْتُ حَوْلِي أَنْعَمًا  
 وَهَصَرْتُ أَغْصَانِ الْمَطَالِبِ مُيَسًّا  
 قَهَرَ الزَّمَانَ وَقَدْ عَرَانِي صَرْفُهُ  
 وَإِذَا نَظَرْتُ وَجَدْتُ بَعْضَ هِبَاتِهِ  
 يَرُوى حَدِيثُ الْجُودِ عَنْهُ مُسْنَدًا  
 مِنْ مَعْشَرٍ فَاقُوا الْمُلُوكَ سِيَادَةً  
 وَكَأَنَّ مَتْنَ الْأَرْضِ يَوْمَ رُكُوبِهِمْ  
 مِنْ كُلِّ أَغْلَبَ فِي الْهِيَاجِ كَأَنَّمَا

غَيْرِي ، وَطَبَعُ الْغُصْنِ أَنْ يَتَمِيلًا  
 عَتَقَ الْقَمِيصُ عَلَى امْرَأَةٍ فَتَبَدَّلَا  
 وَلَوْ أَنَّي جَارٌ لَهُ لَتَحَوَّلَا  
 وَعَشِيقَتُهُ كَالظَّبْيِ أَخَوَرَ أَكْحَلَا  
 وَسَطِ السَّمَاءِ ، وَذَلِكَ فِي وَسَطِ الْفَلَا  
 أَبَدًا يَحِينُ إِلَى زَمَانٍ قَدْ خَلَا  
 لَوْلَمْ تَدَارِكْهُ الدَّمُوعُ لِأَشْعَلَا  
 فَوَجَدْتُ دَمْعِي قَدْ رَوَاهُ مُسْلَسَلَا  
 يَأْنِي صِلَاحُ الدِّينِ أَنْ أَتَذَلَّلَا  
 وَأَرَدْتُ قَبْلَ الْفَرَضِ أَنْ أَتَنْفَلَا (١)  
 وَلِبَسْتُ ثَوْبَ الْعِزِّ مِنْهُ مُسْبَلَا  
 فَأَجَابَنِي مَلِكٌ أَطَالَ وَأَجْزَلَا  
 مَا كَانَ أَسْرَعَهَا إِلَيَّ وَأَعْجَلَا  
 وَمَرِيتُ أَخْلَافَ الْمَوَاهِبِ حُفْلَا  
 حَتَّى مَشَى فِي خِدْمَتِي مُتْرَجَلَا  
 فِيهَا الْمَفَاخِرُ وَالْمَائِثُ وَالْعُلَى  
 فَعَلَامَ تَرْوِيهِ السَّحَابُ مُرْسَلَا  
 وَسَعَادَةً وَتَطَوَّلًا وَتَفَضُّلَا  
 يَكْسُونُهُ بُرْدًا عَلَيْهِ مُهْلَهَلَا  
 لِبَسَ الْغَدِيرَ ، وَهَزَّ مِنْهُ جَدُولَا

(١) اتنفل : أقوم بالنفل وهو فوق الفرض .

وَإِذَا سَأَلْتَ سَأَلْتَ غِيثًا مُسْبِلًا  
 مَوْلَايَ ، قَدْ أَهْدَيْتُهَا لَكَ كَاعِبًا  
 حَمَلْتَ ثَنَاءً كَالْهَضَابِ فَأَبْطَأَتْ  
 عَرَفَتْ مَحَبَّتَهَا لَدَيْكَ وَحُسْنَهَا  
 بَدَوِيَّةٌ إِنْ شِئْتَ ، أَوْ حَضْرِيَّةٌ  
 لَوْ ، أَنَّهُ مِمَّنْ تَقْدَمُ عَصْرُهُ  
 غَزَلَ وَمَدَحُ بَتٌ أَغْرَقُ فِيهِمَا  
 فَتَأَلَّفَتْ عِقْدًا يَرُوقُ نِظَامُهُ  
 يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي دَانَتْ لَهُ  
 فَعْلَاهُمْ مُتَطَوِّلًا ، وَحَبَاهُمْ  
 يَا مَنْ مَدِيحِي فِيهِ صَدَقَ كُلُّهُ  
 يَا مَنْ وَلَاتِي فِيهِ نَصٌّ بَيْنٌ  
 وَلَقَدْ حَلَا عَيْشِي لَدَيْكَ وَلَمْ أَرِدْ  
 وَشَكَرْتُ جُودَكَ كُلَّ شُكْرِ عَالَمٍ

وَإِذَا لَقِيتَ لَقِيتَ لَيْثًا مُسْبِلًا  
 عَذْرَاءٌ تَبْدُو عُدْرَةً وَتَنْصِلًا  
 فاعذر بطيئاً قد أتى لك مثقلاً  
 فَأَتَتْ تُرِيكَ تَذَلُّلاً وَتَعَلُّلاً  
 جَمَعَ الْخَزَامِي نَشْرُهَا وَالْمَنْدَلَا (١)  
 مَنَعَتْ زِيَادًا أَنْ يَقُولَ وَجَرُولًا (٢)  
 كَالْخَمْرِ مَازَجَتْ الزَّلَالَ السُّلْسَلَا  
 وَالْعَقْدُ أَحْسَنُ مَا يَكُونُ مُفَصَّلَا  
 كُلُّ الْمُلُوكِ تَوَدُّدًا وَتَوَسَّلَا  
 مُتَفَضِّلًا ، وَأَتَاهُمْ مُتَمَهِّلًا  
 فَكَأَنَّمَا أَتَلُو كِتَابًا مُنْزَلَا  
 وَالنَّصُّ عِنْدَ الْقَوْمِ لَنْ يُتَأَوَّلَا  
 عَيْشًا سِوَاهُ ، وَإِنْ أَرَدْتُ فَلَا حَلَا  
 أَنْ لَا أَقُومَ بِبَعْضِ ذَاكَ وَلَا : وَلَا

(١) المندل : العود الطيب الرائحة .

(٢) زياد : يريد به زياد ابن أبيه أحد خطباء العرب المشهورين . وجرول : هو الحطيئة

## ووالله ما زالت دمشق مليحة

قال يملح الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي بن الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ملك دمشق سنة ٦٤٨ وكان متغير المزاج ثم عوفى :

لکم منی الودّ الذی لیس یبرحُ  
وکم لی من کتبٍ ورُسلٍ إلیکمُ  
وفی النفس ما لا أستطیعُ أبثّه  
زعمتم بآئی قد نقضتُ عهدکم  
ولاً فما أدری عسی کنتُ ناسياً  
خُلقتُ وفياً لا أرى الغدر فی الهوی  
سلوا الناسَ غیری عن وفائی بعهدکم  
أحبابنا ، حتی متی ؟ وإلى متی  
حیاتی وصبری مذ هجرتم کلاهما  
رعى الله طیفاً منکم بات مؤنسی  
ولکن أتى لیلاً ، وعاد بسُخرةٍ  
ولی رشا ما فیهِ قَدَحٌ لقادحٍ  
فتنتُ به حُلُواً ملیحاً وإنه  
تبراً من قتلی وعینی ترى دمی  
وحسبى ذاك الخدُّ لی منه شاهدٌ  
ویبسمُ عن ثغری یقولون إنه

ولی فیکمُ الشوقُ الشدیدُ المبرحُ  
ولکنها عن لوعتی لیس تُفصحُ  
ولستُ به المکتبُ والرُّسلُ أسمعُ  
لقد کذب الواشی الذی لیس ینصحُ  
عسی کنت سکراناً ، عسی کنت أمزح  
وذلك خُلُقٌ عنه لا أتزحزحُ  
فإنی أرى شکرى لنفسی یقبُحُ  
أعرضُ بالشکوى لکم وأصرُّحُ ؟  
غریبٌ ، ودمعی للغریبین یشرحُ  
وما ضرّه إذ بات لو کان یُصبحُ  
درى أن ضوء الصبح إن لآح یفُضحُ  
سوى أنه من خده النارُ تُقدَحُ  
لأعجبُ شیءٌ کیفَ یحلُو ویملُحُ  
على خده من سیفِ جَفْنیه یسفحُ<sup>(١)</sup>  
ولکن أراه باللواحظ. یجرحُ  
حبابٌ على صهباء بالمسک تنفحُ

(١) یسفح : ینسكب .

وقد شهد المسواكُ عندى بطيبه  
ويا عاذلى فيه جوابك حاضرٌ  
إذا كنتُ ما لى فى كلامك راحةٌ  
وأسمرُ : أما قدّه فهو أهيفُ  
كأنّ الذى فيه من الحسن والصبا  
كأن نسيمَ الروضِ هزّ قوامه  
كأن المدامَ الصُّرفَ مالت بعطفه  
كأننى قد أنشدته مدحَ يوسفٍ  
وإنّ مديحَ الناصرِ بنِ محمدٍ  
مديحُ ينيلُ المادحين جلاله  
وليس بمحتاجٍ إلى مدحِ مادمٍ  
وكلُّ فصيحٍ ألكنُ فى مديحه  
وقد قاس قومُ جودَ يمناه بالحيا  
وغيثُ سمعتُ الناسَ ينتجعونه  
لئن كان يختارُ انتجاعَ بلالهِ  
دعوا ذِكرَ كعبٍ فى السّماحِ ، وحاتمٍ  
وليس صعاليك العريبِ كيوسفٍ  
فما يوسفُ يقرى بنابِ مُسنّةٍ  
ولكن سلطاني أقلُّ عبيده

ولم أرَ عدلاً وهو سكرانٌ يطفحُ (١)  
ولكن سُكوتى عن جوابك أصلحُ  
فإنّ بقائى ساكتاً لى أروحُ  
رَشيقُ ، وأما وجهه فهو أصبحُ  
تداخله زهوٌ به فهو يمرحُ  
ليخجلَ غصنُ البانَةِ المتطوحُ  
كما مال ذى الأرجوحة المُترججُ  
فأطربه ، حتى انثنى يترنحُ  
ليصبو إليه كلُّ قلبٍ ويجنحُ  
ومدحاً بمدحٍ ، ثم يربو ويمنحُ  
مكارمه تُثنى عليه ، وتمدحُ  
لأنّ لسانَ الجودِ بالمدحِ أفصحُ  
وقد غلطوا ، يمناه أسخى وأسمَحُ (٢)  
فأين يُرى غيلانُ منه وصيدحُ؟  
فإنّ بلالاً نعتُهُ يترشّحُ  
فليس يُعدّ اليومَ ذاك التسميحُ  
تعالوا بنا للحقِّ والحقُّ أوضحُ  
ولا العرقُ مقصودٌ ، ولا الشاة تذبّحُ  
يتيه على كِسرى الملكِ ويرجعُ

(١) المسواك : العود الذى تمخّض به الأسنان . والبيت مستمد من قول بشار :

يا أطيّب الناس ريقاً غير مختبر

(٢) الحيا : المطر .



وبعض عطاياه المدائن والقري  
فلو سُئِلَ الدنيا رآها حقيرة  
وإن خليجاً من أياديه للورى  
فَقُلْ لِلْمُلُوكِ الْأَرْضِ مَا تَلَحُّقُونَهُ  
كثيرُ حياءِ الوجه يقطرُ ماؤه  
كذا الليثُ قد قالوا حبيبي وإنه  
مناقبُ قد أضحى بها الدهرُ حالياً  
من النفرِ الغر الذين وجوههم  
بهاليلُ ، أملاكُ كأنَّ أكفهم  
فكم أشرقَت منهم شمس طوالع  
كذاك بنو أيوبَ ما زالَ منهم  
أناسٌ همُ سَنُوا الطريقَ إلى العلا  
ولم يتبعوا في الناس من جاءَ بعدهم  
ليهنَ دمشقَ اليومَ صحتك التي  
فلا زهرَ إلا ضاحكٌ مُتعطِّفُ  
ولا غصنَ إلا وهو نشوان راقص  
وقد أشرقَت أقطارُها فاغتدى لها  
وشرفتَ مغناها فلو أمكنَ الورى  
ووالله ما زالت دمشق مليحة  
عرضت على خيرِ الملوكِ بضاعى

فمن ذا الذى فى ذلك البحر يسبحُ  
وجادَ بها سِرّاً ولا يتبجحُ  
يُرى كل بحرٍ عنده يتضحضحُ  
لقد أتعب الغادى الذى يتروحُ  
على أنه من بابه النارُ تلفحُ  
لأجراً من يلقى جناناً وأوقحُ  
فها عطفه منها موشى موشحُ  
مصاييحُ فى الظلماء بل هى أصبحُ  
بحار بها الأرزاق للناس تسبحُ  
وكم هطلت منهم سحائب دُلح<sup>(١)</sup>  
عظيم مرجى ، أو كريم ممدحُ  
وهم أعربوا عنها ، وقالوا فافصحوا  
لقد بينوا للسالكين وأوضحوا  
بها فرحت ، والمدنُ كالناس تفرحُ  
ولا دوح إلا مائس مُترنحُ  
ولا طير إلا وهو فرحانٌ يصدحُ  
شعاع له فوق المِجْرَةَ مطرحُ  
لطفوا بأركانٍ لها وتمسحوا  
ولكنها عندى بك اليومَ أملحُ  
فألفيت سوقاً صَفَّقَتى فيه ترَبَّحُ

(١) دلح : جمع دالح وهى السحابة الكثيرة الماء .



سَأَزْدَادُ عِزًّا مَا بَقِيتُ وَأَفْلَحُ  
وَأَنَّ أُمُورًا أَبْتَغِيهَا سَتَنْجَحُ  
لِإِذَا أَفْسَدَتْ مِنِّي الْحَوَادِثُ يُصْلِحُ  
لَدَى يَوْسُفَ فِي أَنْعَمِ لَسْتُ أَبْرَحُ  
تَسَامَحُ بِالذَّنْبِ الْعَظِيمِ وَتَسْمَحُ  
مَقَامُكَ أَعْلَى مِنْ مَقَامِي وَأَرْجَحُ  
وَمَا كُلُّ مَعْنَى فِي مَدِيحِكَ يُصْلِحُ  
فَإِنَّكَ تَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ وَتَضْفَحُ  
وَيَبْسُطُ قَلْبًا إِذَا انْقَبَاضٌ وَيُشْرَحُ  
وَأَرْضِي بِبَعْضٍ مِنْهُ إِنْ كُنْتَ أَصْلِحُ

وَقَدْ وَثِّقَتْ نَفْسِي بِأَنِّي عِنْدَهُ  
وَأَنَّ خُطُوبًا أَشْتَكِيهَا سَتَنْجَلِي  
وَأَنَّ صِلَاحَ الدِّينِ ذَا الْمَجْدِ وَالْعِلَا  
يُشْرِقُ غَيْرِي ، أَوْ يُغْرِبُ إِنِّي  
أُمُولَايَ ، سَامَحْنِي فَإِنَّكَ لَمْ تَزَلْ  
لَكَ الْعَذْرُ مَا لِلْقَوْلِ نَحْوَكَ مُرْتَقَى  
فَمَا كُلُّ لَفْظٍ فِي خُطَابِكَ يُرْتَضَى  
أَتَتَكَ ، وَإِنْ كَانَتْ كَثِيرًا تَأَخَّرَتْ  
وَهَبْ لِي أَنْسَاءَ مِنْكَ يَذْهَبُ وَحَشْتِي  
وَجُدْ لِي بِالْقُرْبِ الَّذِي قَدْ عَهْدْتُهُ

ح - الشاعر الهجاء :

### أَقْبَحُ مِنْ وَعْدِ بَلَا وَفَاءِ

لَا زَمَنِي وَذَاكَ مِنْ شِقَائِي	وَجَاهِلٌ طَالَ بِهِ عَنَائِي
أَخْرَقُ ذُو بَصِيرَةٍ عَمِيَاءِ	كَأَنَّهُ الْأَشْهُرُ فِي أَسْمَائِي
أَفْعَالُهُ الْكُلُّ عَلَى اسْتِوَاءِ	لَا يَعْرِفُ الْمَدْحَ مِنَ الْهَجَاءِ
وَمِنْ زَوَالِ النِّعْمَةِ الْحَسَنَاءِ	أَقْبَحُ مِنْ وَعْدِ بَلَا وَفَاءِ
أَثْقَلُ مِنْ شِهَاتِ الْأَعْدَاءِ	أَبْغَضُ لِلْعَيْنِ مِنَ الْأَقْدَاءِ
أَبُو مَعَاذٍ ، أَوْ أَخُو الْخُنَسَاءِ	فَهُوَ إِذْ رَأَتْهُ عَيْنُ الرَّائِي

ثَقِيلٌ . . .

ثَقِيلٌ	كَأَنَّمَا	مَلَكُ الْمَوْتِ قَرِيبُهُ
لَيْسَ فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ	مِنْ تَرَاهُ يُحِبُّهُ	
لَوْ ذَكَرْتَ اسْمَهُ عَلَى الْ	مَاءِ مَا سَاغَ شَرِبُهُ	

## حمقى ، منافقون ، ذوو عجب

أرى قوماً بُليت بهم	نصبي منهم نصبي
فمنهم من ينافق لى	فيحلف لى ، ويكذب لى
ويُلزِمُنِي بتصديق الـ	ذى قد قال من كذب
وذو عجب إذا حدث	ت عنه جئت بالعجب
وما يذرى بحمد الا	ما شعبان من رجب
وما أبصرت أحمق مذ	فى عجم ولا عرب
وأحمق قد شقيت به	بلا عقل ، ولا أدب
فلا ينفك يتبعنى	وإن أمعنت فى الهرب
كأنى قد قتلت له	قتيلا فهو فى طلبي
لأمر ما صحبتهم	فلا تسأل عن السبب
يحسن عقلنا أنا	نصيذ الباز بالحرب
وكنا قد ظننا الصنف	ر عند النقد كالذهب <sup>(١)</sup>
فلم نظفر بحاجتنا	وأشفينا على العطب

(١) الصفر : يقصد به التحاس .

## كلامك والدولاب والطبل والرحى . . .

تكلّمُنِي بِالْأَرْمَنِيسَةِ جَارَتِي	أَيَا جَارَتِي ، مَا الْأَرْمَنِيسَةُ مِنْ طَبْعِي
وَيَا جَارَتِي ، لَمْ آتِ بَيْتَكَ رَغْبَةً	وَلَا أَنْتِ مِنْ يُرْجَى لُضْرٌ وَلَا نَفْعٌ
دَعَانِي إِلَيْكَ اللَّيْلُ وَالْأَيْنُ وَالسُّرَى	فَصَادَفْتَ أَمْرًا ضَاقَ مِنْ حَمَلِهِ وَسَعَى <sup>(١)</sup>
كَلَامُكَ وَالْدَوْلَابُ وَالطَّبْلُ وَالرَّحَى	فَلَمْ أَدْرِ مَا أَشْكُوهُ مِنْ ذَلِكَ الْجَمْعِ
كَلَامُكَ فِيهِ وَحْدَهُ لِي كَفَايَةٌ	كَأَنَّ صَخُورًا مِنْهُ تُقْدَفُ فِي سَمْعِي
لَكَ . اللَّهُ مَا لَاقَيْتَ يَا عَرَبِيَّتِي	وَمَا ذَا الَّذِي عَوَّضْتُ بِالْبَانِ وَالْجَزْعِ؟ <sup>(٢)</sup>
سَادَعُوا عَلَى الْجُرْدِ الْجِيَادِ ؛ لِأَنَّهَا	سَرَتْ فَأَنْتِ بِي وَادِيًا غَيْرَ ذِي زَرْعٍ

## كيف لي منك خلاص . . .

يَا ثَقِيلًا لِي مِنْ رَوْ	يَنْتَه هُم طَوِيلٌ
وَبَغِيضًا هُوَ فِي الْحَدِّ	ق شَجِي لَيْسَ يَزُولُ
كُلُّ فَضْلٍ فِي الْوَرَى أَضْ	عَافَهُ فَيْكَ فَضُولُ
كَيْفَ لِي مِنْكَ خَلَاصٌ	أَيْنَ لِي مِنْكَ سَبِيلُ؟
حَارَ أَمْرِي فَيْكَ حَتَّى	لَسْتُ أَدْرِي مَا أَقُولُ
أَنْتِ وَاللَّهُ ثَقِيلٌ	أَنْتِ وَاللَّهُ ثَقِيلٌ

(١) الأَيْن : التعب والمشقة . السرى : السير ليلا .

(٢) الجزع : من الوادي حيث تقطعه .

هو في المجلس قدم . .

كلّما قلتُ استرخنا جاءنا الشيخُ الإمامُ  
فاعترانا كلُّنا من ه انقباض واحتشامُ  
فهو في المجلسِ قدّمُ ولنا منه فدامُ (١)  
وعلى الجملةِ فالش يخُ ثقیلٌ والسلامُ

غاب عنا ففرحنا . . .

وثقیلٌ ما برحنا نتمنى البعدَ عنه  
غابَ عنا ففرحنا جاءنا أثقلُ منه

لا حسن ولا حسنى . . .

وذی خسةٍ وافيته عندَ حاجةٍ سمعت به لفظاً، ولم أره معنی  
فوجهٌ ولا یُشر ، ومالٌ ولا ندی لقدخابَ لاحسنُ حواه ، ولاحُسْنی

خال من العقل . . .

ما العقل إلا زينةٌ سبحانَ من أخلاك منه  
قُسمت على الناسِ العقو لُ وكان قِسماً غبت عنه

(١) القدم : الأحقق . القدام : الكمامة .

## تَبًّا لَهَا مِنْ لَحْيَةٍ . . .

وأحمق	ذی	لحیة	كبيرة	منتشرة
طلابتُ	فيها	وجهه	بشدة	فلم أراه
معرفة	لكنه	أصبح	فيها	نكره
ثور	غدا	أعجوبة	بلحية	مدوره
لو كان	ذاك	الثور	عج	لا عبدته السمره
تبا	لها	من	لحیة	كبيرة
عظيمة	لكنها	ليست	تساوى	بعره
كم	قرية	للنمل	في	حافاتها
يقسم	عشر	عشرها	يكنى	رجالا
يحسدها	الخنزير	إذ	يبصرها	منشوره
ويشتهى	لو أنه	قد	نبتت	في وجهه
باردة	ثقيلة	كانها	سحابة	فوق البلاد
ما كان	قط	ربها	من الكرام	البره
قد	بركت	حاملاها	منها	بحال
إذا	خطت	أقدامه	كانت	بها
وإن	مشى	رأيت	فو	ق الأرض
أطولها	قد	رويت	من	ريقة

بالعذره

وقد أتت خبيثةً منتنةً مستقدرة  
 مضحكةً ما كان ق ط. مثلها لمسخره  
 فلو مضى السوق بها وزفها بالمزمره  
 لحصلت له مغ ل ضيعة موفره  
 لخوف من يبصرها للجوف منها قرقره

### د - الشاعر الوصاف :

#### بستان المآرب

لله بستانى وما قضيت فيه من المآرب  
 لهفى على زمنى به والعيش مخضر الجوانب  
 ولكم بكرت له وقد بكرت له أيدي السحاب  
 فيروقى والجو من ساكن ، والقطر ساكب  
 والطل في أغصانه يحكى عقوداً في ترائب<sup>(١)</sup>  
 وتفتحت أزهاره فتأرججت من كل جانب<sup>(٢)</sup>  
 وبدا على دوحاته ثمر كأذناب الثعالب  
 وكأنما آصاله ذهب على الأوراق ذائب  
 فهناك كم ذهبية لى فى الولوع بها مذهب

(١) الطل : الندى . الترائب : جمع تريبة وهى مقدم الصدر .

(٢) تأرججت : تعطرت .



## مسرّات ودور . . .

حبذا دورٌ على النية ل ، وكاساتٌ تدورُ  
ومسرّاتٌ تموجُ ال أرضٌ منها وتمورُ  
وقصورٌ ما لعيش نيلته فيها قصورُ  
كم بها قد مرّ لي أسه تغفرُ الله سرورُ  
كل عيشٍ غيرِ ذاك ال عيشٌ في العالم زورُ  
منزل ليس على الأر ضٍ له عندي نظيرُ

## راح ، وروح . . .

هَبْ النسيم عيلا وهو النسيمُ الصّحيحُ  
وطاب وقتك فانمضْ فالآن طاب الصبوحُ (١)  
ونخذ عن الكاسِ نوراً به يضيءُ الفسيحُ  
من قهوةٍ طاب منها طعمٌ ، ولونٌ ، وريحُ  
في دنّها هي راح وفي الحشّا هي روحُ  
يابن الكرام إلى كم على أنت شحيحُ  
أنت المعذب قلبي وقلبك المستريحُ

(١) الصبوح : شراب الصباح وضده الغبوق .

## رعى الله عهد مصر . . .

فرعى الله عهد مصر وحيًا      ما مَضَى لى بمصرَ من أوقات  
 حبلًا النيلُ والمراكبُ فيه      مصعداتٍ بنا ومنحدرات  
 ولياليَ بالجزيرة والجب      زة فيما اشتبهتُ من لذاتِ  
 بين روض حكى ظهورَ الطواوي      س وجو حكى بطونَ البزاةِ  
 حيث مجرى الخليج كالحيَّة الرق      طاء بين الرياضِ والجذاتِ  
 ونديم كما نحب ظريفٍ      وعلى كل ما نحب موائِ  
 كل شىء أردته فهو فيه      حسنُ الذاتِ كاملُ الأدواتِ  
 يا زمانى الذى مضى يا زمانى      لك مِنى تواترُ الزفراتِ

## يوم أغر . . .

في هذه القصيدة كان شاطئ النيل مجلساً للهو البهاء زهير وصحبه الذين مثلوا ضروباً مختلفة من الناس : فثمة المسلمون ، وثمة الأقباط . وثمة الصالحون أرباب المحاريب ، وثمة المساخير ، وأصحاب المواخير . . .

علا حسن النواعير      وأصوات الشحارير<sup>(١)</sup>  
 وقد طاب لنا الوقتُ      صفوا من غير تكدير  
 فقم يا ألف مولاى      أدْرِها غيرَ مأمورِ  
 وخذها كالذنانير      على رغم الدنانيرِ  
 أدْرِها فى سنى الصبحِ      تزدُ نوراً على نورِ

(١) الشحارير : جمع شحور ، طائر حسن الصوت .

عُقَارَا أَصْبَحْتُ مِثْلَ هَبَاءٍ غَيْرِ مَنْشُورٍ<sup>(١)</sup>  
 بَدَتْ أَحْسَنَ مِنْ نَارٍ رَأَتْهَا عَيْنٌ مَقْرُورٍ<sup>(٢)</sup>  
 نَزَلْنَا شَاطِئَ النَّيْلِ عَلَى بُسْطِ الْأَزَاهِيرِ  
 وَقَدْ أَضْحَى لَهُ بِالْمَوْ جِ وَجْهٌ ذُو أُسَارِيرِ  
 تَسَابَقْنَا إِلَى اللَّهِوِ وَوَافَيْنَا بِتَبْكِيرِ  
 وَفَيْنَا رَبُّ مَحْرَابِ وَفَيْنَا رَبُّ مَآخُورِ  
 وَمِنْ قَوْمٍ مَسَاتِيرِ وَمِنْ قَوْمٍ مَسَاخِيرِ  
 وَمِنْ جِدٍّ ، وَمِنْ هَزَلٍ وَمِنْ حَقٍّ ، وَمِنْ زُورِ  
 فَطَوْرًا فِي الْمَقَاصِيرِ وَطَوْرًا فِي الدَّسَاكِيرِ  
 وَإِخْوَانٍ كَمَا تَدْرِي مِنْ الْقَبْطِ النَّحَارِيرِ<sup>(٣)</sup>  
 وَفِيهِمْ كُلُّ ذِي حَسَنِ مِنَ الْإِحْسَانِ وَوَفُورِ  
 وَتَالِ لِلْمَزَامِيرِ بِصَوْتِ كَالْمَزَامِيرِ<sup>(٤)</sup>  
 وَفِي تِلْكَ الْبِرَانِيْسِ بِدُورٍ فِي دِيَاغِيرِ  
 وَجُوهٍ كَالْتَصَاوِيرِ تَصَلَّى لِلتَّصَاوِيرِ  
 وَمِنْ تَحْتِ الزَّنَانِيرِ خُصُورٍ كَالزَّنَابِيرِ  
 أَتَيْنَاهُمْ فَمَا بَقُّوا وَلَا ضُنُّوا بِمَدْخُورِ  
 لَقَدْ مَرَّ لَنَا يَوْمٌ مِنَ الْغُرِّ الْمَشَاهِيرِ

(١) العقار : الحمر .

(٢) المقرور : المصاب بالقر وهو البرد الشديد .

(٣) النحارير : جمع نحير وهو الحاذق الفطن العاقل .

(٤) المزامير الأولى : مجموعة أناشيد النبي داود . والمزامير الثانية : جمع مزموذ وهو

على ما خلته من غيرة ميعاد وتقدير  
فقل ما شئت من قول وقدر كل تقدير

### نار ونور

هذا مجلس هو سرور شامل ، يتحدث البهاء فيه عن الخمر وعناقها ، ولطفها وفعلها في الشاربين ،  
كما يتحدث عما كان بالمجلس من الأزهار والرياحين ، والنداء والساقين ، والمنفى وأثره في السامعين ،  
وللطاهي ولطافته وظرفه وخبرته ، والقصور الهادرات الفائرات . . .

يومُنَا يومٌ مطيرٌ	ولنا كأسٌ تدورُ
ومُقَسَّامٌ تحسب الأَرَّ	ضَ بنا فيه تسيرُ
أَخَذتْ منا عَقَارُ	أَخَذتْ منه الدهورُ
لَطَفَتْ بالذن حتى	قِيلَ سرٌّ : وضميرُ
فَنِيتْ إِلَّا يَسِيرًا	كُلُّهَا ذَاكَ الْيَسِيرُ
فَهِيَ فِي الكَاسَاتِ نَارُ	وَهِيَ فِي الْأَحْشَاءِ نَوْرُ
وَكَأَنَّ الكَأْسَ حَقُّ	وَكَأَنَّ الرَّاحَ زورُ
وَمِنَ الرِّيحَانِ وَالْأَزَّ	هَارَ غَضُّ وَنَضِيرُ
وَنَدَايَ بِهِم العِي	شَ كَمَا قِيلَ . قَصِيرُ
وَسَقَاةَ مِثْلَ مَا نَه	وَيَ شَمُوسَ وَبُدُورُ
وَمُغْنٌ هُوَ فِيهَا	يَحْسَبُ النَّاسُ أَمِيرُ
مَا لَهُ فِيهَا يَدَانِي	هَ مِنْ الظَّرْفِ . نَظِيرُ
وَهُوَ إِنْ شِئْتَ غَنِيٌ	وَهُوَ إِنْ شِئْتَ فَقِيرُ
وَإِذَا غَنَى تَمُوجُ الْ	أَرْضُ مِنْهُ وَتَمُورُ

وتغيب القوم في المجلس والقوم حضور  
ولنا طاهٍ نظيفٌ وظريفٌ وخبيرٌ  
وقدور هدرت فيه على الجمرِ تفور  
مجلسٌ إن زرتنا فيه هـ فقد تمَّ السرور  
كلُّ ما تطلبه فيه هـ مليحٌ وكثيرٌ

### دعوة إلى مجلس هو . . .

رقٌ في الجوِّ النسيمُ فتفضَّلْ يا نديمُ  
ما ترى كيف انمحت من حلَّةِ الليلِ رُقومُ ؟  
وكان الفجرُ نهرٌ غرقت فيه النجومُ  
فاجلُّ بالصَّهباءِ ليلاً بقيت منه رسومُ  
واسبق الشمسَ بشمسٍ لا تواربها الغيومُ  
قهوةٌ رقت فما في كأسها إلَّا نسيمٌ (١)  
بنت كرمٍ لم يفز قطُّ (م) بها إلَّا الكريمُ  
وعلى طينتها من سالفِ الدهرِ ختمُ  
لم تزل عند المجوسى (م) لها قدرٌ عظيمُ  
ولها الراهبُ في الديار يصلى ويصوم  
وقليلٌ كلُّ ما يطرب فيها ويسومُ  
ولقد طاف بها ساقي رخييمٍ ورحيمُ

بارعٌ في كل ما تط لبُّ منه وترومُ  
 ونديمٌ وكما تمّ وى حبيبٌ وحميمٌ  
 ليس يبدو منه ما تع تبُّ منه أو تلومُ  
 مطربٌ في صنعة الألا حان والضربِ عليمٌ  
 ولعمري إن تفضلاً ت فقد تمّ النعيمُ

### صاح خذها وهاتها

هذه القصيدة ذات الوزن الخفيف ، واحدة من قصائد كثيرة للبهاء ، تصلح للتلحين والغناء ،  
 وفيها يتحدث عن الجلو المهيأ للهو والشراب ، والخمر ونقائنها وبهجتها للأعين والقلوب ، كما يدعو  
 إلى رفع التكلف ، وإزالة الخواجز بين الندامى ، ويصف من يهواه ، ويعرض عن عدل العاذلين :

هات يا صاح غنّني واملا الكأس واسقني  
 قم بنا يا نديم نس بقْ أذان المودنِ  
 أصبح الجو في ردا من الغيم أدكنِ  
 وتبدى الصباحُ كال بشر في وجه محسنِ  
 صاح خذها وهاتها واجلّها لي وزينِ  
 متٌ جداً ولوعة فاسقنيها لعلني  
 من مدام كأنما كاشها قلب مؤمنِ  
 فهنّ نورٌ ، وما عدا ال نورٌ منها فقد فني  
 قهوة ذاتُ بهجة في قلوب وأعينِ  
 قد أقامت ، وعدّ ما شئت في قعر مخزنِ  
 فإذا ما أرتتها سمّها لي وسمّني  
 وارفع الستر بيننا لا تفكّر بأنني



خَلَّنِي	مِنْ	تَصْنَعٍ	لِللَّوْرِ	أَوْ	تَزِينٍ
فَلَمَمَرِي		يَزِينُنِي	فَرَطُ	هَذَا	التَّسْنِينِ
سَيِّدِي	بَعْدَ	ذَا	هَاتِ	قُلْ	لِي
لَكَ	مَا	شِئْتَ	لَسْتُ	عِنْدِي	بِهِنَّ
لِي	حَبِيبٌ	فَإِنْ	لَا	أُسْمِيَّهَ	فَافْطَنِ
إِنَّ	يَوْمًا	يَزُورُنِي	يَوْمُ	عَيْدٍ	مُزِينِ
هُوَ	بَدْرٌ	لِمَجْتَلٍ	هُوَ	غَصْنٌ	لِمَجْتَنِي
عَاذِلِي	فِيهِ	لَا	أَنَا	عَنْ	عَاذِلِي
لَسْتُ	أَصْغَى	وَلَا	خَلَّنِي	مِنْكَ	خَلَّنِي

( هـ ) الشاعر الوجداني :

### حكاية حال

يصور البهاء في هذه القصيدة الأدوار التي مر بها ، فقد حكى هنا قصة حياته : ذكر عهد صباه ، ثم عهد شبابه وفتوته ، وما كان له فيه من مهر وأنس ، ثم خدمته للملك الصالح ، وما كان يأخذ نفسه به من الأمانة والحفاظ على الحقوق ، ثم ما كان من حاله الزاهدة المنطوية بعد أن ترك خدمة الملوك فوقف موقف المرشدين الواعظين ، أو المتلهفين على ماضيه في ذكريات أليمة وحنين ، وأخيراً تأهبه للقاء الله . . .

أَمْدَكُورِي	عَهْدَ	الصَّبَا	بَعْدَ	الْإِنَابَةِ	وَالرَّجُوعِ
أَذْكُرْتَنِي	أَشْيَاءَ	مِنْ	زَمَنِ	تَرَكْتُ	بِهَا
أَشْيَاءَ	ذَقْتُ	لِفَقْدِهَا	أَلَمَ	الْفِطَامِ	عَلَى الرُّضِيعِ
نَسَجْتُ	عَلَيْهَا	الْعَنْكَبُ	تُ ،	وَعُودَرْتُ	بَيْنَ الضُّلُوعِ
وَإِذَا	تَقَاضَيْتَ	الْجَوَا	بَ	فَعِخْذُ	جَوَابِكَ

ذهبَ الجديدُ من الشبا  
 وودتُ لو دام الخلي  
 ولكم طلبتُ إلى الربيع  
 وفضحتُ أزهارَ الريا  
 وسهرتُ في ليلِ الصبا  
 وطرفتُ خِدرَ الكاعبِ الـ  
 وسفرتُ للملكِ العظ  
 وتركتَه في الأمرِ يند  
 وبلغتُ ذاك ، ولم أكن  
 ثم ارعويتُ وصرتُ في  
 فزهدتُ في هذا وذا  
 فأليك عني يا ندي  
 ما أنتَ من ذاك الطرا  
 أتريدُ بعدَ الشيبِ مني (م) صبوةً الناشئِ الخليعِ  
 لا ، لا وحقُّ الله ما  
 إن كنتَ ترجعُ أنتَ بع  
 كيف الرجوعُ وقد رأي  
 عارٌ : رجوعُك بعدَ ما  
 وحللتَ في ظلِّ الجنا  
 واغلمُ أخى بأنه

بـ فكيف ظنُّك بالخليعِ  
 حـ ، فهلُ إليه من شفيع ؟  
 حـ بفتيةٍ مثلِ الربيعِ  
 ضـ بحسنِ أزهارِ البديعِ  
 سهرًا ألدَّ من الهجوعِ  
 حسناء والخودِ الشموعِ (١)  
 يمـ الشأنِ والقدرِ الرفيعِ  
 فند في الشريفِ وفي الوضيعِ  
 فيه لحقٌ بالمُضيعِ  
 حدُّ السكينةِ والخُشوعِ  
 فقلِ السلامُ على الجميعِ  
 مـ فما صنيعُك من صنيعي  
 زـ ، ولا من البزِّ الرفيعِ  
 (م) صبوةً الناشئِ الخليعِ  
 أنا بالسميعِ ولا المطيعِ  
 لـ الشيبِ ، فايأش من رجوعي  
 تـ الريحَ تلعبُ بالزروعِ  
 عاينتَ حيطانَ الربوعِ  
 بـ الرَّحْبِ ، والحرزِ المنيعِ  
 لا بالسجودِ ولا الركوعِ

(١) الشموع في النساء : المازحة الضحك اللعوب .

فهناك كم كرم ، وكم  
احسب حسابك في الذي  
لطف ، وكم بر منيع  
تنويه من قبل الشروع  
لـ مقدماً قبل الطلوع

### فيا مؤنسى - لا فرق الله بيننا

بروحى من قد زارنى وهو خائف  
وما زار إلا طارقاً بعد هجعة  
فلم أرَ بذراً قبله بات خائفاً  
وكنْتُ أظن الحسن قد خص وجهه  
فديتُ حبيباً زارنى مُتفضلاً  
وما كثرت منى إليه رسائل  
رآنى عليلاً فى هواه فعادنى  
فمت كمداً يا حاسدى ، فأنا الذى  
ولى واحداً ما لى من الناس غيره  
فيا مؤنسى ، لا فرق الله بيننا  
ويا زائراً قد زار من غير موعد

كما اهتز غصنٌ فى الأراكه مائداً (١)  
وقد قام واش يتقيه وحاسداً  
فهل كان يخشى أن تغار الفرائداً؟  
وما هو إلا قائمٌ فيه قاعد  
وليس على ذاك التفضل زائداً (٢)  
ولا هطلت بالوصل منه مواعد  
حبيب له بالمكرمات عوائد (٣)  
له صيلة ممن يحب وعائد  
أرى أنه الدنيا ، وإن قلت واحد  
ولا أقفرت للأنس منا معاهد  
وحقك إني شاكر لك حامداً

(١) المائد : المائل .

(٢) الفرائد : النجوم .

(٣) عاد المريض : زاره .

## أنتم الناس أيها العشاق !

هكذا يتسامى البهاء بالحب ، ويسمو بالعشاق ، فالحب أخلاق الكرام ، والعشاق عنده هم الناس . . .

حُرِّمَتْ	عَيْنِي	مَنَامِي	فَعَلَى	الطَّيْفِ	سَلَامِي
لَسْتُ	أَرْضَى	مِنْ حَبِيبِ	بِوِصَالِ	فِي	الْمَنَامِ
أَنَا	يَقْظَانُ	أَرَاهُ	فِي قُعُودِي	،	وَقِيَامِي
عَنْ	يَمِينِي	،	وِوَرَائِي	،	وَأَمَامِي
وَهُوَ	فِي سَرِّي	،	وَسَكُونِي	،	وَكَلَامِي
وَهُوَ	رِيحَانِي	وَرُوحِي	وَنَدِيمِي	،	وَمُدَامِي (١)
أَيُّهَا	الْلاَثِمُ	فِيهِ	لَا	تَقْصُرُ	فِي مَلَامِي
فَمَتَى	كَرَّرْتَ	ذِكْرَا	هـ	يَزِدُّ	فِيهِ غَرَامِي
لَا مَ	فِي	الْحَبِّ	أَنَاسُ	وَهُوَ	أَخْلَاقُ الْكَرَامِ
مَا أَرَى	النَّاسَ	سِوَى	الْعَشَّةِ	إِ	قِي مِنْ كُلِّ الْأَنَامِ

## قلبي عندك

سَيِّدِي	قَلْبِي	عِنْدَكَ	سَيِّدِي	أَوْحَشْتِ	عَبْدَكَ
سَيِّدِي	قَلْبِي	لِي وَحْدًا	فِي مَتَى	تُنْجِزُ	وَعْدَكَ ؟
أَتَرَى	تَذَكَّرُ	عَهْدِي	مِثْلَ	مَا أَذَكَّرُ	عَهْدَكَ
أَمْ	تَرَى	تَحْفَظُ	وَدِّي	مِثْلَ	مَا أَحْفَظُ

قم بنا إن شئت عندي أو أكن إن شئت عندك  
أنا في داري وحدي فتفضل أنت وحدك

### كن لي وحدي

مولاي كن لي وحدي فإنني لك وحدك  
وكن بقلبك عندي فإن قلبي عندك  
لي فيك قصد جميل لا خيب الله قصدك  
حاشاك توثر بعدي ولست أوثر بعدك  
إن تنس عهدي إنني والله لم أنس عهدك  
أضعت ودّ محبّ ما زال يحفظ ودك  
مولاي ، إن غبت عني واسوء حالي بعدك

### ثورة

وفي روح خفيفة ، وفي ثورة عنيفة ، وفي لغة مصرية عربية يقول البهاء :

نراكُم قدّ بدّا مِنكمْ  
وعرضتُمْ بأقوالٍ  
كشفتُمْ بيننا أشياء  
وطرقتُمْ إلى الغدرِ  
وقبّحتُمْ بِأَسْمَاءِ  
وكم جاءت لنا عنكمْ  
أمورٌ ما عهدناها  
وما نجّهـلُ هَعْنَاهَا  
وقد كُنّا سترناها  
طريقاً ما سلكناهَا  
وحسنتُمْ مَسْمَاهَا  
أحاديثٌ ردَدناها

وأشياء	رأيناها	وقلنا ما رأيناها
فلا والله ما يحس	ن بين الناس ذكرها	ن عنكم بل حفظناها
قرأنا سورة السلوا	جسرنا ،	وفعلناها
وما زلتم بنا حتى	إليكم قد منعناها	تراكم قد غصضناها
فرجل تطلب المسعى	للقياكم زجرناها	فها نحن سدناها
وعين تمني أن	ت عدن ما دخلناها	فإننا قد سلوناها
ونفس كلما اشتاقت	عليها ودفناها	كانا ما عرفناها
وكانت بيننا طاق	منى قط ذكرناها	أحاديث خبناها
ولو أنكم جنبا	ح مننا لبذلناها	
وأما الحالة الأخرى		
وقد ماتت وصلينا		
هجرنا ذكرها حتى		
وها نحن ، وها أنتم		
وفي النفس بقايا من		
فلو أرضتكم الأروا		



## غضب

غضب الحبيب على البهاء . . . فقال هذه الأبيات يتغزل ، ويتودد ، وقد مضى على الغضب ليلتان . . .

يا قضييًّا من لُجَيْنِ	يا مليحَ المُقْلَتَيْنِ
كلُّ ما يرضيك عندي	فعلى رأسي وعيني
ما لقلبي منك يا بد	رُ سوى خُفِّي حنين <sup>(١)</sup>
ويرى الحساد أني	منك ملآن اليدين
يا مليحاً أنا منه	بين هجران وبين <sup>(٢)</sup>
إن تبدى أو تولّى	يا لها من فتنتين
فهو من قبل ومن بع	دُ مليحُ الطُلُعَتَيْنِ
هو بدرٌ قد تجلّى	نوره في المشرقين
وكتابٌ سطرَ الحسد	نُ به في صفحتين
أين من يكسب أجراً	بين من أهوى وبيني؟
راح غضبانَ فما كلمه	ني مذ ليلتين

ما أنا في شيء سوى الحب خاضع

ولعل حبيبته قد تمادى في الصدود ، فزاد في غيبته حتى صارت أربعة أيام فسجل البهاء خواطره في هذه الأبيات . . .

حبيبي على الدنيا إذا غبت وحشةٌ	فيا قمرى قل لي : متى أنت طالعٌ
لقد فنيت روحى عليك صبايةٌ	فما أنت يا روحى العزيزة صانعٌ

(١) عاد بخفى حنين : مثل يضرب للخيبة والإخفاق .

(٢) البين : البعد .

سرورى أَن تَبْقَى بِخَيْرٍ وَنِعْمَةٌ  
فَمَا الْحُبُّ إِنْ أَخْلَصْتُهُ لَكَ بَاطِلٌ  
وغيرك إِنْ وَافَى فَمَا أَنَا نَاطِرٌ  
كَأَنَّى مُوسَى حِينَ أَلْقَتْهُ أُمُّهُ  
أَظُنُّ حَبِيبِي حَالًا عَمَّا عَهْدَتْهُ  
فَقَدْ رَاحَ غَضَبَانَا وَلِي مَا رَأَيْتُهُ  
أَرَى قَصْدَهُ أَنْ يَقْطَعَ الْوَصْلَ بَيْنَنَا  
وَإِنِّي عَلَى هَذَا الْجَفَاءِ لَصَابِرٌ  
فَإِنْ تَتَفَضَّلُ يَا رَسُولِي فَقُلْ لَهُ  
فَوَاللَّهِ مَا ابْتَلَيْتُ لِقَلْبِي غُلَّةً  
تَذَلَّلْتُ حَتَّى رَقَّ لِي قَلْبٌ حَاسِدِي  
فَلَا تَنْكِرُوا مِنِّي خُضُوعاً عَهْدْتُمْ

وَأَنَّى مِنَ الدُّنْيَا بِذَلِكَ قَانِعٌ  
وَلَا الدَّمْعُ إِنْ أَفْنَيْتُهُ فَيْكَ ضَائِعٌ  
إِلَيْهِ ، وَإِنْ نَادَى فَمَا أَنَا سَامِعٌ  
وَقَدْ حُرِّمْتُ قَدَمًا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعُ  
وإِلَّا فَمَا عَذْرٌ عَنِ الْوَصْلِ مَانِعٌ  
ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، وَذَا الْيَوْمُ رَابِعٌ  
وَقَدْ سَلَّ سَيْفَ اللَّحْظِ وَالسَّيْفُ قَاطِعٌ  
لَعَلَّ حَبِيبِي بِالرِّضَا لِي رَاجِعٌ  
مَحَبُّكَ فِي ضَيْقٍ وَحَلَمُكَ وَاسِعٌ  
وَلَا نَشِفْتُ مِنِّي عَلَيْهِ الْمَدَامِعُ  
وَعَادَ عَذُولِي فِي الْهَوَى وَهُوَ شَافِعٌ  
فَمَا أَنَا فِي شَيْءٍ سِوَى الْحُبِّ خَاضِعٌ

### الله يحفظ قلبي والذي فيه

ويطول الهجران ، ويرمل البهاء رسولا يبتغيه وسيلة بينه وبين الحبيب الغضبان . . .

أَقْرَأُ سَلَامِي عَلَى مَنْ لَا أَسْمِيهِ  
وَمَنْ أُعْرِضُ عَنْهُ حِينَ أَذْكُرُهُ  
أَشِيرُ بِذِكْرِي فِي ضَمَنِ الْحَدِيثِ لَهُ  
وَاسْأَلْهُ إِنْ كَانَ يُرْضِيهِ ضَنِّي جَسَدِي  
فَلَيْتَ عَيْنَ حَبِيبِي فِي الْيَعَادِ تَرَى  
هَلْ كُنْتُ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فِي مَحَبَّتِهِ

وَمِنْ بِرُوحِي مِنَ الْأَشْوَاءِ أَفْدِيهِ  
فَإِنْ ذَكَرْتُ سِوَاهُ كُنْتُ أَغْنِيهِ  
إِنْ الْإِشَارَةُ فِي مَعْنَايَ تَكْفِيهِ  
فَحَبِّدَا كُلُّ شَيْءٍ كَانَ يُرْضِيهِ  
حَالِي وَمَا بِي مِنْ ضُرٍّ أَقَاسِيهِ  
حَتَّى أَطَالَ عَذَابِي مِنْهُ بِالنَّيَةِ

أَحْبَبْتُ كُلَّ سَمِيٍّ فِي الْأَنَامِ لَهُ  
يَغِيبُ عَنِّي وَأَفْكَارِي تَمُثِّلُهُ  
لَا ضَمِيمَ يَخْشَاهُ قَلْبِي وَالْحَبِيبُ بِهِ  
مِنْ مِثْلٍ قَلْبِي ؟ أَوْ مَنْ مِثْلُ سَاكِنِهِ  
يَا أَحْسَنَ النَّاسِ يَا مَنْ لَا أَبُوحُ بِهِ  
قَدْ أَتَعَسَ اللَّهُ عَيْنًا صَرْتُ تَوَحُّشُهَا  
مَوْلَايَ ، أَصْبَحَ وَجْدِي فِيكَ مُشْتَهَرًا  
وَصَارَ ذِكْرِي لِلْوَاشِي بِهِ وَلَعُ  
فَمَنْ أَذَاعَ حَدِيثًا كُنْتُ أَكْثَمُهُ  
فِيَا رَسُولِي تَضَرَّعْ فِي السُّؤَالِ لَهُ  
إِذَا سَأَلْتَ فَسَلْ مَنْ فِيهِ مَكْرَمَةٌ

وَكُلٌّ مِنْ فِيهِ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهِ  
حَتَّى يُخَيَّلَ لِي أَنِّي أَنَا جِيهِ  
فَإِنَّ سَاكِنَ ذَاكَ الْبَيْتِ يَحْمِيهِ  
اللَّهُ يَحْفَظُ قَلْبِي وَالَّذِي فِيهِ  
يَا مَنْ تَجَنَّى ، وَمَا أَحْلَى تَجَنُّيهِ !  
وَأَسْعَدَ اللَّهُ قَلْبًا صَرْتُ تَأْوِيهِ  
فَكَيْفَ أَسْتُرُهُ ؟ أَمْ كَيْفَ أَخْفِيهِ ؟  
لَقَدْ تَكَلَّفْتُ أَمْرًا لَسْتُ تَعْنِيهِ  
حَتَّى وَجَدْتُ نَسِيمَ الرُّوضِ يَرْوِيهِ  
عَسَاكَ تَعْطِفُهُ نَحْوِي وَتَشْنِيهِ  
لَا تَطْلُبِ الْمَاءَ إِلَّا مِنْ مَجَارِيهِ

## وصال

وينجح الرسول في استرضاء الحبيب ، فيكون لقاء بعد هجر ، وصالح بعد غضب ، ويقول البهاء  
في مصرية خفيفة :

سمع الناس ، وقلنا	وافتنصحننا ، واسترخنا
بتَّ والبدرُ نديمي	ففعَلنا وترَكنا
باتَ يدعوهُ التَّصَابِي	فسمِعنا ، وأطعنا
وجعلناه	يقيناً
شكرَ اللهَ لمن بشَّ	رَ بالوصلِ وهنَّا
لي حبيبٌ لي منه	كلُّ شيءٍ أتمننى

فهو بذرٌ يتجلى      وهو غُصنٌ يتثنى  
 كان غضباناً فلمّا      أن تلاقينا اصطَلحنا  
 يتجسّنى ، ولعمري      حقّه أن يتجسّنى  
 جمع الحسن وفيه      غيرُ ذاك الحسنِ معنى  
 من له مثلُ حبيبي      قد حوى حسناً وحُسنى  
 هاتِ حدثي : وقلْ لي      ما على العاذلِ منّا  
 نحنُ لا نسألُ عنه      ما له يَسألُ عنّا ؟ !

### قبيل الرحيل عن مصر

أأرحلُ عن مصرٍ ، وطيبِ نعيمها      وأى مكانٍ بعدها لي شائقُ  
 وأترك أوطاناً ثراها لناشقي      هو الطيبُ لا ما ضُمّنته المفارقُ (١)  
 وكيف وقد أضحت من الحسنِ جنةٌ      زرابيها مبثوثةٌ والمارقُ ؟  
 بلاد تروقُ العين والقلب بهجةً      وتجمع ما يهوى تقيٌ وفاسقُ  
 وإخوانُ صدقٍ يجمع الفضلُ شملهم      مجالسُهم مما حووه حدائقُ  
 أسكانُ مصرٍ ، إن قضى الله بالنوى      فتمَّ عهودُ بيننا ومواثقُ  
 فلا تذكروها للنسيم ؛ فإنه      لأمثالها من نفحةِ الروضِ سارقُ  
 إلى كم جفوني بالدموع قريحةً      وحتامَ قلبي بالتفرّق خافقُ ؟  
 فني كلُّ يومٍ لي حنينٌ مجدّدٌ      وفي كل أرضٍ لي حبيبٌ مفارقُ  
 ستأتي من الأيام أعظمُ فرقةً      فما لي أسعى نحوها وأسبقُ ؟

(١) المفارق : جمع مفرق ، كناية عن الرأس .

ومن خُلِقِي أَنِي أَلُوفٌ ، وَأَنَّهُ  
يَحْرُكُ وَجَدِي فِي الْأَرَاكَةِ طَائِرٌ  
وَأَقْسَمُ مَا فَارَقْتُ فِي الْأَرْضِ مَنْزِلًا  
وَعِنْدِي مِنَ الْآدَابِ فِي الْبَعْدِ مُؤَنَسٌ  
يُطَوِّلُ التَّفَاتِي لِلَّذِينَ أَفَارِقُ  
وَيُبْعَثُ شَجْوَى فِي الدُّجْنَةِ بَارِقٌ<sup>(١)</sup>  
وَيُذَكِّرُ إِلَّا وَالدُّمُوعَ سَوَابِقُ  
أَفَارِقُ أَوْطَانِي ، وَلَيْسَ يُفَارِقُ

### عسى الله يطوى شقة البعد

سَقَى وَادِيًا بَيْنَ الْعَرِيشِ وَبَرْقَةٍ  
وَحِيًّا النَّسِيمُ الرُّطْبُ عَنِّي إِذَا سَرَى  
إِلَادَ مَتَى مَا جِئْتَهَا. جِئْتَ جَنَّةً  
تُمَثِّلُ لِي الْأَشْوَاقُ . أَنَّ تَرَابَهَا  
فِيَا سَاكِنِي . مَصْرِ ، تُرَاكُمُ عَلِمْتُمْ  
وَمَا فِي فَوَادِي مَوْضِعٌ لِسَوَاكُم  
عَسَى اللَّهُ يَطْوِي شَقَّةَ الْبَعْدِ بَيْنَنَا  
عَلَى لَذَاكَ الْيَوْمِ صَوْمٌ نَذَرْتُهُ  
مِنَ الْغَيْثِ هَطَّالُ الشَّابِّيبِ هَتَّانُ<sup>(٢)</sup>  
هَنَالِكَ أَوْطَانًا إِذَا قِيلَ أَوْطَانُ<sup>(٣)</sup>  
لَعَيْنِكَ مِنْهَا كُلُّ مَا شِئْتَ رِضْوَانُ  
وَحَصْبَاءُهَا مَسْكٌ يَفُوحُ وَعِقْيَانُ<sup>(٤)</sup>  
بِأَنِّي مَا لِي عَنْكُمُ الدَّهْرُ سُلْوَانُ<sup>(٥)</sup>  
وَمَنْ أَيْنَ فِيهِ . وَهُوَ بِالشَّوْقِ مَلَّانُ؟  
فَتَهْدَأُ أَحْشَاءُ ، وَتَرْقَأُ أَجْفَانُ<sup>(٦)</sup>  
وَعِنْدِي عَلَى رَأْيِ التَّصَوُّفِ شُكْرَانُ

(١) الدجنة : الليل .

(٢) الشَّابِّيبُ : جمع شَوَيْبٍ : الدفعة من المطر . الْهَتَّانُ : الغزير المنصب .

(٣) سَرَى : سار وأصله سار ليلا .

(٤) عِقْيَانُ : ذهب خالص .

(٥) سُلْوَانُ : نسيان .

(٦) تَرْقَأُ أَجْفَانُ : تجف من السموع .

## أتمضي أنت منفرداً وأبقى؟

يعزُّ عليَّ فقدُك يا عليَّ  
تكدَّرَ فيك صافي العيش لما  
لئن أخليتُ منك محلَّ أنسي  
فبعدك ليس يُفرِحُنِي بشيرٌ  
ولو كان الرَّدَى بشراً سوياً  
عصاني الصبرُ بعدك وهو طَوْعِي  
وهل أبقتُ لي الأيامُ دمعاً  
فيا جزعى تعزُّ فليس صبر  
أتمضي أنتَ منفرداً وأبقى  
وهل حقُّ حياتك يا زهير؟  
وحقاً صار ذاك البحرُ يَبْساً  
وأقلع ذلك الغيثُ المرجى  
لقد طوت الحوادثُ منه جسماً  
مضوا بسريره وعليه نورٌ  
وفي أكفانه ندب سرى  
على حين استعاض الذكرُ منه

ألا لله ذا الأجلُ الوحي<sup>(١)</sup>  
عدمُك أيها الخِلُ الصَّفيُّ  
فما أنا فيك من أسف خلي  
وبعدك ليس يحزُنُنِي نعي  
لهابك أيها البشرُ السَّوى  
وطاوع بعدك الدمعُ العصي  
فيسعدُنِي به الجفنُ الشَّقِيُّ  
ويا ظمئى تسلُّ فليس رى  
لقد غدرتك نفسك يا وفي؟  
وهل حقُّ وفاتك يا علي؟  
وصوح ذلك الروضُ النَّدَى  
فلا الوسمى منه ولا الولى<sup>(٢)</sup>  
وليس لذكره في الناس طي  
جَلِيٌّ تحته سرٌّ خَفِيٌّ  
تمخلفَ بعده ذكرٌ سَنِيٌّ<sup>(٣)</sup>  
وحين أتى كما اندفع الأتَى<sup>(٤)</sup>

(١) الوحي : السريع .

(٢) الوسمى : أول مطر الربيع .

(٣) السنى : المرفوع .

(٤) الأتى : السيل الذى لا يدرك .



وكم درت مكارمه لعاف      كما درت لأطفال ثدى  
وكم أروى على ظمإ نداء      سقاه هاطل الغيث الروى

### هنيئاً له قد طاب حياً وميتاً

عليك سلامُ الله يا قبرَ عثمانٍ  
ولا زال منهلاً على تُربِكَ الحيا  
لقد خنته في الود أن عشت بعده  
وعهدى بصبرى في الخطوب يطيعنى  
فيا ثاوياً قد طيبَ الله ذكره  
وجدت الذى أسلاك عنى ، وإننى  
وعوّضت عن دارٍ بأكناف جنّة  
فديت الذى فى حبه اتفق الورى  
لقد دفن الأقوام يوم وفاته  
وواروه ، والذكرى تمثّل شخصه  
يواجهنى فى كلّ وقتٍ خياله  
وأحسب لو ناديتُه وهو ميت  
هنيئاً له قد طاب حياً وميتاً  
صديقى الذى مذ مات ماتت مسرتى  
وكان أنيسى مذ بليت بغربة

وحياك عنى كلّ رّوح وريحانٍ  
يغاديك منه كلّ أوطف هتان<sup>(١)</sup>  
وما كنت فى ودّ الصديق بخوانٍ  
فما لى أراه اليوم أظهر عصيانٍ  
فأضحى وطيب الذكر عمر له ثانٍ  
وحقك ما حدثت نفسى بسُلوَانٍ  
وعوّضت عن أهلٍ بحورٍ وولدانٍ  
فلو سئلوا لم يختلف فيه إثنان  
بقيّة معروفٍ وخيرٍ وإحسانٍ  
كأنهم واروه ما بين أجفانٍ  
كما كنت ألقاه قديماً ويلقانى  
لجاوبنى تحت التراب ، ونادانى  
فما كان محتاجاً لتطبيب أكفانٍ  
فما لى لا أبكيه والرزق رزانٍ  
وكنت كأتى بين أهلى وأوطانى

وقد كان أسلا في عن الناس كلهم  
 كريمُ المحيّا ، باسمٌ متهلّلٌ  
 يَمُنُّ لمن يرجوه من غيرِ مِنّةٍ  
 فقدتُ حبيباً ، وابتليتُ بغربةٍ  
 وما كنت عنه أملك الصبرَ ساعةً  
 هو الموتُ ما فيه وفاءٌ لصاحبٍ  
 كذلك ما زال الزمانُ وأهلُه  
 وما الناسُ إلا راحلٌ بعد راحلٍ  
 وإلا فأين الناسُ من عهدِ آدمٍ

ولا أحدٌ عنه من الناسِ أسلا في  
 متى جئته لم تلقه غيرَ جدلان  
 فإن قلتَ منّا فقل غيرَ منّا<sup>(١)</sup>  
 وحسبك من هذين أمرانِ مُرانِ  
 فما صار أقسانى عليه وألهانى!  
 وهيهاتَ إنسانٌ يموت لإنسانٍ  
 فمن قبلنا كم قد تفرّق إلفانٍ  
 إلى العالمِ الباقي من العالمِ الفاني  
 ومن عهدِ نوحٍ ثمّ منه إلى الآنِ

## المراجع

- |                    |  |
|--------------------|--|
| ابن الأثير         | : المثل السائر .                         |
| أحمد بدوى          | : الحياة الأدبية فى العصور الصايبية .    |
| البهاء زهير        | : الديوان .                              |
| ابن تغرى بردى      | : النجوم الزاهرة .                       |
| ابن جبير           | : الرحلة .                               |
| جلال الدين السيوطى | : حسن المحاضرة .                         |
| جورجى زيدان        | : تاريخ مصر الحديثة .                    |
| ابن حجة الحموى     | : خزانة الأدب .                          |
| ابن خلكان          | : وفيات الأعيان .                        |
| أبو شامة           | : الروضتين .                             |
|                    | : ذيل الروضتين .                         |
| شوقى ضيف           | : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى .         |
| عبد اللطيف حمزة    | : الحركة الفكرية فى مصر .                |
| على مبارك          | : الخطط التوفيقية .                      |
| ابن العماد الحنبلى | : شذرات الذهب .                          |
| غوستاف لوبون       | : حضارة العرب ( ترجمة عادل زعير ) .      |
| أبو الفداء         | : المختصر فى أخبار البشر .               |
| القلقشندى          | : صبح الأعشى .                           |
| ابن كثير           | : البداية والنهاية .                     |
| مصطفى عبد الرازق   | : بحث فى البهاء زهير .                   |
|                    | : إغاثة الأمة بكشف الغمة .               |
| المقرئى            | : السلوك لمعرفة دول الملوك .             |
|                    | : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . |
| ابن واصل           | : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب .        |
| ياقوت              | : معجم البلدان .                         |



# فهرست

## الفصل الأول

### عصر البهاء زهير

#### صفحة

٥	١ - الحياة السياسية
٥	أ - عهد بني أيوب ونظام الحكم فيه
٩	ب - ظهور المماليك
١٠	٢ - الحياة الاجتماعية والاقتصادية
١٥	٣ - الحياة الثقافية

## الفصل الثاني

### البهاء زهير في عصره

١٩	١ - حياته
١٩	( أ ) نسبه
١٩	( ب ) كنيته
١٩	( ج ) لقبه
٢٠	( د ) مسقط رأسه
٢٠	( هـ ) طفولته وصباه
٢١	( و ) دراسته وثقافته
٢٤	( ز ) اتصاله بأعيان عصره
٣١	( ح ) صفاته
٣٥	( ط ) أسرته
٣٦	( ي ) وفاته





الفصل الرابع  
منتخبات من آثار البهاء زهير

صفحة	
٧٣	١ - البهاء زهير الكاتب . . . . .
٧٣	رسالة ملك الفرنجة . . . . .
٧٤	جواب السلطان . . . . .
٧٥	٢ - البهاء زهير الشاعر . . . . .
٧٥	أ - الشاعر القومي . . . . .
٧٥	كفى الله دمياط المكاره . . . . .
٧٨	يروى القنا بدم الأعداء . . . . .
٨١	يا أسنى . . . . .
٨٢	يا طول شوق وحنين . . . . .
٨٢	ب - الشاعر الاجتماعي . . . . .
٨٢	مناقب شتى . . . . .
٨٤	يولي المنايا والمنى . . . . .
٨٥	جناب فيه للمجد مرتقى . . . . .
٨٧	بعض هباته المفاخر والمآثر والعلا . . . . .
٩٠	والله ما زالت دمشق مليحة . . . . .
٩٣	ج - الشاعر الهجاء . . . . .
٩٣	أقبح من وعد بلا وفاء . . . . .
٩٣	ثقیل . . . . .
٩٤	حمقى منافقون . . . . .
٩٥	كلامك والدولاب . . . . .
٩٥	كيف لي منك خلاص . . . . .
٩٦	هو في المجلس قدم . . . . .
٩٦	غاب عنا ففرحنا . . . . .
٩٦	لا حسن ولا حسنى . . . . .
٩٦	خال من العقل . . . . .
٩٧	تبا لها من حية . . . . .

## صفحة

٩٨	د - الشاعر الوصاف
٩٨	بستان المآرب
٩٩	مسررات ودور
٩٩	راح وروح
١٠٠	رعى الله عهد مصر
١٠٠	يوم أغر
١٠٢	نار ونور
١٠٣	دعوة إلى مجلس لهو
١٠٤	صاح خذها وهاتها
١٠٥	ه - الشاعر الوجداني
١٠٥	حكاية حال
١٠٧	فيما مؤنسى
١٠٨	أنتم الناس أيها العشاق
١٠٨	قلبي عندك
١٠٩	كن لي وحدي
١٠٩	ثورة
١١١	غضب
١١١	ما أنا في شيء
١١٢	الله يحفظ قلبي
١١٣	وصال
١١٤	قبيل الرحيل عن مصر
١١٥	عسى الله يطوى شقة البعد
١١٦	أتمنى أنت منفرداً وأبقى
١١٧	هنيئاً له
١١٩	المراجع





## مجموعة نوابغ الفكر العربي

مجموعة جديدة جامعة تقدم نوابغ الفكر العربي في جميع العصور ، كما يصورهم ويترجمهم نوابغ الفكر العربي في العصر الحاضر من كل قطر وبلد ؛ فهي تعنى بالشعراء والكتاب كما تعنى بالفلاسفة والحكماء ، وتتناول أعلام اللغة كما تتناول أعلام التاريخ . وقد رأت دار المعارف أن تعهد في كل بحث من هذه البحوث إلى المختصين به وذوى الخبرة والدراية فيه ؛ فيجولوا فيه ويتبعوه بباب واف للمختار من روائع المترجم له مفسر المعاني مبين الأغراض .

### ● ظهر منها :

- ١ - ابن رشد . ٢ - الجاحظ . ٣ - الشيخ نجيب الخداد . ٤ - محمود سامى البارودى . ٥ - ابن زيدون . ٦ - الشيخ ناصيف اليازجى . ٧ - إخوان الصفا . ٨ - بشار بن برد . ٩ - بديع الزمان الهمذانى . ١٠ - أبو الفرج الأصبهاني . ١١ - ابن الرومى . ١٢ - الفرزدق . ١٣ - السهروردي . ١٤ - الشيخ إبراهيم اليازجى . ١٥ - المتنبى . ١٦ - البحتري . ١٧ - الخنساء . ١٨ - ابن قتيبة . ١٩ - جرير . ٢٠ - ابن المقفع . ٢١ - أبو حيان التوحيدي . ٢٢ - ابن سينا . ٢٣ - عبد الرحمن الكواكبي . ٢٤ - رفاعة رافع الطهطاوى . ٢٥ - خليل مطران . ٢٦ - ولى الدين يكن . ٢٧ - صفى الدين الحلى . ٢٨ - البهاء زهير . ٢٩ - جمال الدين الأفغانى . ٣٠ - تقى الدين بن حجة الحموى . ٣١ - الفارابى . ٣٢ - ابن رشيق القيروانى . ٢٣ - القاضى الجرجانى . ٣٤ - حسان بن ثابت . ٣٥ - قاسم أمين . ٣٦ - ضياء الدين بن الأثير .

